المركز القومى للترجمة

كيئتشيرو هيرانو

الكسوف

ترجمة

ميسرة عبد الراضي عفيفي



2367

سلسلة الإبداع القصصى

الكسوف

رواية

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2367
- الكسوف
- كيئتشيرو هيرانو
- ميسرة عبد الراضى عفيفى
- الطبعة الأولى 2015

هذه ترجمة:

日蝕/ NISSHOKU

平野　敬一郎/ Hirano Keiichiro

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة.　ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤　فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: nctegypt@nctegypt.org　Tel: 27354524　Fax: 27354554

الكسوف

روايـة

تأليف: كيئتشيرو هيرانو

ترجمة: ميسرة عبد الراضى عفيفى

2015

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

هيرانو، كيئتشيرو، ١٩٧٥-
الكسوف/ كيئتشيرو هيرانو، ترجمة ميسرة عبد الراضى عفيفى.- ط١.- القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٥
عدد الصفحات: ١٩٦ صفحة.
المقـــــاس: ١٤x ٢٠ سم.
سلسلة الابداع القصصى
تدمك: ٩٧٨٩٧٧٩٢٠٤١٢٣
١- القصص اليابانية
أ - عفيفى، ميسرة عبد الراضى (مترجم)

٨٩١,٦٣

رقم الإيداع
٢٠١٥ / ١٩٩٠٤

مطابع الأهرام التجارية - قليوب

كلمة المترجم

بدأتُ فى ترجمة هذه الرواية فى أبريل من عام ١٩٩٩. أى فى العام نفسه الذى صدرت فيه الرواية، وحازت على جائزة أكوتاجاوا الأدبية الشهيرة، ليصبح صاحبها أصغر من حصل على تلك الجائزة، إذ كان لا يزال طالبا فى السنة الثالثة من دراسته الجامعية فى كلية الحقوق بجامعة كيوتو، وقتها لم يكن فى ذهنى ولا فى نيتى نشر تلك الترجمة. فلقد كانت الترجمة عبارة عن محاولة الهدف منها فقط قراءة وفهم الرواية التى أثيرت حولها ضجة كبرى فى الأوساط الأدبية والإعلامية اليابانية. ومحاولة قراءة الرواية وفهمها سببه أن اللغة اليابانية تكتب بعدة أنواع من الحروف، منها حروف صينية "كانجي"، عبارة عن رموز مصورة يصل عددها لآلاف كثيرة، وتحدد الحكومة اليابانية عددا محدودا يزيد قليلاعن ٢٠٠٠ رمز، هو المسموح باستخدامه فى الإعلام والتعليم والثقافة. ويحدث تغير وتطور لهذا العدد مع مرور الزمن؛ لذا فاللغة اليابانية القديمة صعبة الفهم والقراءة لليابانيين المعاصرين من غير المتخصصين؛ لأنهم لم يتعلموا قراءتها بشكل صحيح. رواية الكسوف التى بين يدى القارئ الآن مكتوبة بلغة يابانية قديمة جدا، أراد كاتبها أن تكون كذلك لتتواءم مع زمن الرواية وهو نهاية القرن الخامس عشر الميلادي. ولهذا السبب لا يستطيع أغلبية اليابانيين قراءة الرواية دون الاستعانة بالمعاجم والقواميس لقراءة الرموز الصينية القديمة وفهمها، التى لم تعد تستخدم الآن فى الكتابة المتداولة فى اليابان. أما بالنسبة لأجنبى مثلى، فالموضوع أكثر صعوبة ومشقة، وقد استغرق الأمر سنوات؛ لكى أستطيع الانتهاء من ترجمة الرواية.

كما ذكرت، هذه الرواية - وهى العمل الأول لمؤلفها - أثارت العديد من القضايا لعدة أسباب، أحد هذه الأسباب هو ما ذكرته الآن من طريقة كتابة الرواية بلغة متحفية قديمة، لا تستخدم الآن فى العادة، ولا يستطيع القارئ اليابانى العادى التعاطى معها، بما يعنى أن الكاتب ربما تعمد منذ اللحظة الأولى إبعاد القارئ العادى عن تناول روايته، فعنوان الرواية نفسه "الكسوف" اختار لغة الرمز القديم المهجور للكلمة، وليس الرمز المستخدم حاليا. وكذلك موضوع الرواية نفسه الذى يناقش أمرا ربما بدا بعيدا جدا عن اهتمامات القارئ الياباني. تتحدث الرواية عن أوروبا فى القرون الوسطى وحركات الهرطقة التى انتشرت وعلاقة ذلك بالعلوم الحديثة التى انتقلت إلى أوروبا من الشرق الإسلامى وخاصة علم الكيمياء. وتتحدث كذلك عن سيطرة الكنيسة الكاثوليكية على كل ما يدور فى أوروبا ومحاولتها إنفاذ معتقداتها على الجميع واعتبار كل من يخالفها خارجا عن الدين، يجب محاكمته بموجب محاكم التفتيش وحرقه حيا.

تدور الرواية بضمير المتكلم الذى لا نعرف من اسمه إلا ما يقتصر على اسمه الأول فقط نيقولا. تبدأ الرواية فجأة بصفحة يكتبها نيقولا بطل الرواية الأساسى وراوى الأحداث فيها كمقدمة لما سوف يكتبه من أحداث، يقول: إنها أحداث حصلت له بالفعل، ويُقسم أمام الرب بصدق ما يقول، ويذكر أن سبب قسمه هو غرابة ما سيقوله فى اعترافاته مما يجعل القارئ ربما لا يصدق قوله، فهو يقسم ألا يقول غير الصدق؛ لكى يقنع قارئه بما يقوله؛ وذلك لكى يكبح جماح قلمه عن كتابة أى زيف أو كذب أو اختلاق وقائع لم تحدث. هذا النوع من التقديم يسبب كثيرا من التشوق لدى

القارئ، ويحثه على مواصلة القراءة لمعرفة ما هى تلك الأحداث الغريبة التى لا تصدق. وكذلك يعطى الرواية مسحة من الواقعية إذا تبدو وكأنها عبارة عن مذكرات كتبها راهب حقيقى عاش فى تلك الفترة بشكل حقيقي. وهو ما يذكرنا هنا بالمقدمة التى كتبها دكتور يوسف زيدان لروايته "عزازيل"، والتى جعلت عددا كبيرا من القراء يعتقد رغم وجود كلمة "رواية" مكتوبة على الغلاف، أنها تسجيل حقيقى لوقائع حقيقية كتبها راهب مسيحى حقيقى فى القرون المسيحية الأولى وكشف عنها الدكتور زيدان، خاصة وأن تخصصه هو المخطوطات التاريخية القديمة. روايتنا هذه لا تصل إلى هذا الحد؛ وذلك لأن كاتبها وهذا أحد أسباب الضجة التى أحدثتها، عبارة عن طالب لا يزال يدرس القانون فى السنة الثالثة من دراسته الجامعية. ويقول هيرانو: إن كتابة الرواية استغرقت منه ستة أشهر لجمع مادتها وستة أشهر لكتابتها؛ أى عام كامل لكى ينتهى منها.
الرواية تناقش قضايا عقائدية مسيحية شديدة الحساسية، وتتناول مناقشة حركات الهرطقة، وتقوم بالرد عليها بشكل يأخذ جانب رأى الكنيسة الكاثوليكية، وإن كان يعترض على محاكم التفتيش، ويطالب أن يكون الرد على الرأى بالرأى والإقناع وليس بالحديد والنار. وفى الوقت نفسه تتعرض الرواية للمعاناة النفسية التى تعترى الراهب الكاثوليكى ومحاولته الحثيثة للتوفيق بين ما يؤمن به وبين ما يقوله ويثبته العلم يوما بعد يوم. وفى نهاية الرواية يقوم نيقولا بفك الأدابير عن كتب علم الخيمياء، ويقوم بنفسه بمواصلة تجارب علمية معملية فى علم الصنعة أو الخيمياء. ربما كان فى ذلك إرهاصا لتغلب العلم على الجمود الكاثوليكى فيما يلى ذلك من عصور.

والآن لنلقى نظرة على مؤلف الرواية كيئتشيرو هيرانو، ولد هيرانو عام ١٩٧٥ فى محافظة أيتشى بوسط اليابان، توفى والده وهو فى السنة الأولى من عمره، فذهب مع والدته للعيش فى منزل والديها بمدينة كيتاكيوشو فى محافظة فوكوأوكا جنوب غرب اليابان وظل بها حتى سن الثامنة عشر حيث قُبل فى جامعة كيوتو القومية. بدأ الكتابة فى سن السابعة عشر ولكنه لم ينشر إبداعاته الأدبية فى ذلك الوقت. أول رواياته المنشورة هى هذه الرواية "الكسوف" والتى حاز بها على جائزة "أكوتاغاوا" العريقة ليكون من أصغر من حصلوا عليها ورابع أديب يحصل عليها أثناء دراسته الجامعية بعد شنتارو إيشيهارا (محافظ طوكيو الحالى)، وكينزابرو أويه (الحائز على جائزة نوبل للآداب) وريو موراكامي. واصل إصداره للأعمال الأدبية فكتب عددا من الروايات وعدة مجموعات للقصص القصيرة. الروايات منها «حكايات الشهر الأول»، و «وداع الجنازة»، و «الفجر»، و «انهيار السد»، و «أجساد عارية بدون وجوه» و «حب من حيث الشكل فقط» وآخر أعماله هى روايته «املأ الفراغات» التى نشرها لأول مرة مسلسلة فى مجلة «مورنينج» الخاصة بالمانجا والكارتون. ثم صدرت فى كتاب فى شهر نوفمبر من عام ٢٠١٢، أما المجموعات القصصية القصيرة فمنها، «نهر تاكاسيه»، و «أنت حيث لا توجد أنت»... إلخ. وغير ذلك نشر عدة كتب تحتوى على مقالات نقدية وحوارات مع أدباء على سبيل المثال كتاب "ديالوج" عبارة عن حوار طويل بينه وبين الروائى اليابانى كينزابرو أويه الحائز على جائزة نوبل فى الآداب عام ١٩٩٤.

بالإضافة إلى جائزة أكوتاجاوا، حصل هيرانو على جائزة كيوتو للثقافة عام ٢٠٠٠، وعلى جائزة وزير التعليم والعلوم لتشجيع العلوم فى عام ٢٠٠٨ عن روايته "انهيار السد"، وعلى جائزة بريكس دوماغو بونكامورا فى عام ٢٠٠٩، وعلى جائزة مِحافظة فوكوأوكا الثقافية فى مجال الإبداع لعام ٢٠١١.

ترجمت أعماله فى فرنسا وكوريا الجنوبية وتايوان وروسيا والسويد. وهذه هى أول رواية له تترجم إلى اللغة العربية.

قائمة بأسماء الأعلام الذين تم ذكرهم فى الرواية:

تمتلئ هذه الرواية بأسماء العديد من المشاهير والأعلام من أنحاء العالم المختلفة وخاصة مشاهير أوروبا فى العصور الوسطى. فيما يلى قائمة بتلك الشخصيات مع تعريف موجز لها:

لاكتانتيوس: (٢٤٠ - ٣٢٠) هو لوسيوس كاليوس فيرميانوس لاكتانتيوس، عالم لاهوت مسيحى ولد فى شمال إفريقيا فى القرن الثالث الميلادي. كان يكتب باللغة اللاتينية وعُرف بدفاعه عن المسيحية باستخدام المنطق والفلسفة. عمل فى نيقوميديا مدرسا، وقد عهد إليه الإمبراطور الرومانى قسطنطين برعاية ولده الأكبر وتعليمه.

مارشيللو فيتشينو: (١٤٣٣ - ١٤٩٩) لاهوتى وطبيب وفيلسوف ومترجم إيطالى عاش فى القرن الخامس عشر الميلادى كان يعمل لدى كوزيمو دى ميديتشى حاكم فلورانسا المستنير الذى كان مهتما بالفلسفة اليونانية والعلوم القديمة، وقد أمر كوزيمو

مترجمه فيتشينو بالتفرغ لترجمة أعمال هرمس مثلث العظمة. وقد أنهى فيتشينو هذا العمل ليقرأه على كوزيمو قبل وفاته مباشرة. وكان فيتشينو هو الذى أسس أكاديمية أفلاطون الجديدة بدعم وتمويل من عائلة دى ميديتشي.

هرمس مثلث العظمة: يقال: إن اسمه عبارة عن اندماج الإله هرمس فى الأساطير اليونانية مع الإله تحوت المصرى مع أحد الحكماء القدامى الذى يدعى هرمس. وهذا هو سبب لقب مثلث العظمة أو صاحب العظمة الثلاثية. وهناك رأى يقول: إن هرمس هو النبى إدريس عليه السلام. وقد ترجم عبد الهادى عباس كتابا للفرنسى لويس مينار، يحتوى على عدد من كتابات هرمس مثلث العظمة مع دراسة وتحليل لها (دار الحصاد للنشر والتوزيع السورية الطبعة الأولى عام ١٩٩٨).

سامفوريان شامبيه: (١٤٧١ - ١٥٣٨) طبيب فرنسى من موبلييه، وكان الطبيب الخاص لأنطون دوق لوريان. استقر فى ليون وأصبح من أشهر أطبائها وأنشأ فيها كلية الطب. تعمّق فى الدراسات اليونانية والعربية وألف عدة كتب تاريخية فى ذلك.

القديس توماس: (١٢٢٥ - ١٢٧٤) توما الأكوينى فيلسوف المسيحية الكاثوليكية. ولد لأسرة غنية شمال إيطاليا. درس اللاهوت منذ كان فى الخامسة من عمره وفى العشرين من عمره انضم إلى جماعة الدومينيكان المعروفة بالزهد والرهبنة. عارضت والدته انضمامه للجماعة، وجعلت إخوته يخطفونه وتم حبسه عدة أشهر فى مقر إقامة أسرته بقلعة روكاسكا. بعد هروبه التحق بجامعة باريس لدراسة علم اللاهوت. تعرف على أرسطو من خلال

شروحات ابن رشد، وطوّع فلسفة أرسطو لتكون فى خدمة علم اللاهوت المسيحي. وتعتبر دراسته "اللاهوت الإجمالي" أو Summma هى عقيدة الكنيسة الكاثوليكية حتى الآن.

أرسطو: (٣٨٤ ق م - ٣٢٢ ق م) فيلسوف يونانى تلميذ أفلاطون ومعلم الإسكندر الأكبر. يعتبر مع سقراط وأفلاطون أعظم ثلاثة فلاسفة فى الفلسفة الغربية. التحق بالجيش، ولكنه عزل منه، فتحول إلى صيدلي. انضم فى سن السابعة عشر إلى أكاديمية أفلاطون وظل بها عشرين عاما حتى وفاة أفلاطون فى عام ٣٤٧ ق م. وفى نفس العام دعاه الملك فيليب الثانى ملك مقدونيا لكى يصبح المعلم الخاص بولده الإسكندر. بعد تولى الإسكندر العرش عاد إلى أثينا وافتتح مدرسته الخاصة به تحت اسم الليسيزم.

أفلاطون: (٤٢٧ ق م - ٣٤٧ ق م) فيلسوف يونانى، تلميذ سقراط وأستاذ أرسطو. ولد فى عائلة أرستقراطية تمتد إلى آخر ملوك أثينا. حاول فى شبابه أن يكون سياسيا ولكنه أصيب بخيبة أمل فى السياسة، فتحول لدراسة الفلسفة على يد سقراط. أشهر كتبه هى «المحاورات» و «الجمهورية». أسس الأكاديمية فى أثينا وكانت تدرس الفلك والرياضيات وعلوم السياسة والأحياء والفلسفة. مات فى الثمانين من عمره.

بونافينتورا: (١٢٢١ - ١٢٧٤) عالم لاهوت إيطالى، رأس جماعة الفرنسيسكان، وحاول إعادة توحيد وتألف المجموعات المتعارضة معها. درس اللاهوت فى جامعة باريس وله عدة مؤلفات

منها أشهر أعماله وهو سيرة حياة القديس فرنسيس مؤسس جماعة الفرنسيسكان.

لوفيفر ديتابل: (١٤٥٥ - ١٥٣٦) عالم لاهوت وفيلسوف إنسانى فرنسي. أحد رواد حركة الإصلاح الدينى فى فرنسا. ذهب إلى إيطاليا ودرس فى فلورانسا وروما وفينسيا ثم عاد إلى جامعة باريس لإكمال دراسته فيها. يشتهر بترجمته للكتاب المقدس إلى اللغة الفرنسية. يُقال: إن جون كالفن زاره فى فرنسا وتعلم اللغة اليونانية على يديه. لوفيفر نفسه ظل حتى وفاته على الكاثوليكية ولكن الكثير من تلاميذه تحولوا إلى البروتستانتية.

ابن رشد: (١١٢٦ - ١١٩٨) أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد فيلسوف وفقيه وقاضٍ مسلم، يُقال له ابن رشد الحفيد تفرقة له عن جده محمد بن أحمد بن رشد الذى كان عالما وفقيها وقاضيا كذلك. ولد فى قرطبة ودرس الفقه المالكى والعقيدة الأشعرية. يعتبر أشهر فلاسفة الأندلس وأكثر من أثر فى علماء أوروبا فى العصور الوسطى، وينسب له الفضل فى وصول فلسفة أرسطو وأفلاطون لأوروبا. تأثر به عدد كبير من العلماء الذين جاءوا بعده خاصة علماء اللاهوت المسيحى مثل : توماس الإكوينى، وكذلك روجر بيكون، ورينيه ديكارت، وغيرهم كثير من علماء أوروبا وفلاسفتها. توفى فى مراكش بعد أن طُرد من الأندلس بسبب خلاف نشأ بينه وبين الخليفة ابن يعقوب.

جون كابريولوس: (١٣٨٠ - ١٤٤٤) لاهوتى فرنسى ينتمى للعقيدة التوماسية، يطلق عليه أمير التوماسيين. ولد فى ديوسيز

الفرنسية وتوفى بها. انضم لجماعة الدومينيكان فى مدينة تولوز. درس اللاهوت فى جامعة باريس، وتخصص فى دراسة أعمال القديس توماس. وكتب دفاعا عن لاهوت القديس توماس أربعة مجدات تحت اسم "حماية لاهوت القديس توماس الإكويني".

الكاردينال جايتانوس: (١٤٦٩ - ١٥٣٤) هو "جاكوب دى فيو" لاهوتى إيطالى ولد فى نابولي. انضم لجماعة الدومينيكان وهو فى الخامسة عشر من عمره، وكرس نفسه لدراسة لاهوت القديس توماس وهو يعتبر مؤسس التوماسية الجديدة. نصبه البابا ليو العاشر كاردينالا ورئيسا لأساقفة أبراشية بالريمو. مشهور عند البروتستانت بمعارضته لمارتن لوثر والحركة الإصلاحية البروتستناتية، ولكنه أكثر شهرة لدى الكاثوليك بأنه شارح تعاليم إجمال اللاهوت Summa للقديس توماس. توفى فى روما عام ١٥٣٤.

وليم الأوكامي: (١٢٨٨ - ١٣٤٨) ولد فى أوكام، ودرس فى جامعة أوكسفورد، فى بدايات حياته انضم إلى جماعة الفرنسيسكان. تم اتهامه بالهرطقة وإرساله إلى البابوية التى كانت وقتها فى مدينة أفينيون بفرنسا لتقديمه إلى محاكم التفتيش، وسجل فى كتبه أنه قابل هناك مايستر إيكهارت الذى كان متهم هو الآخر بالهرطقة. هرب وليم من أفينيون إلى ميونيخ وعاش تحت حماية الملك لويس الرابع ملك بافاريا. ومات فى ميونيخ بمرض الطاعون.

جون ديونز سكوتس: (١٢٦٥ - ١٣٠٨) عالم لاهوت وفيلسوف مسيحي، ولد فى ديونز باسكتلندا. انضم لجماعة الفرنسيسكان، ويعتبر خليفة توماس الإكوينى فى أفكاره واهتمامه

بفكر أرسطو. درس فى **جامعة أوكسفورد وباريس، ذهب** للتعليم فى مدينة كولونيا الألمانية **وتوفى بها.**

نيكولاس كوزانوس: (١٤٠١ - ١٤٦٤) كاردينال الكنيسة الكاثوليكية فى ألمانيا، **عالم لاهوت ورياضيات**، وفيلسوف، وحقوقي، ولد لعائلة غنية. درس فى **جامعة هايدلبرج**، وحصل على الدكتوراه من جامعة بادوا فى عام ١٤٢٣، والتحق بجامعة كولونيا مدرسا. بذل جهودا كبيرة فى محاولة التقارب بين الكنيستين الكاثوليكية واليونانية. أصبح ممثل البابا فى ألمانيا، مات فى أمبريا بإيطاليا ودفن فى كنيسة القديس بطرس فى روما.

القديس فرانسيسكو: (١١٨٢ - ١٢٢٦) ولد فى مدينة أسيس الإيطالية لعائلة غنية باسم جيوفانى بيرنادوني. نشأ شابا مرفها وحاول أن يصبح فارسا حربيا. اشترك فى الحرب، ولكنه أُسر وخلال أسره اختلط بمرضى الجذام مما كان له أكبر الأثر عليه فيما بعد. بعد عودته إلى موطنه سلك حياة الزهد والتقشف، وأسس مبادئ جماعة الفرنسيسكان. كانت الكنيسة الكاثوليكية تحارب دعاوى الزهد والتقشف فى نطاق حربها على الطائفة الكاثارية، ولكن البابا إينوسنت الثالث بارك أعمال وأنشطة فرانسيسكو. فى عام ١٢١٩ ذهب فرانسيسكو للتبشير بين المسلمين فى مصر، فقبض المصريون عليه، لكنه نجح فى مقابلة السلطان «الملك الكامل»، دعاه إلى المسيحية، ولكن بالطبع رفض الملك ذلك، وأطلق سراح فرانسيسكو فعاد إلى بلاده.

القديس دومينيكوس: (١١٧٠ - ١٢٢١) ولد فى إسبانيا، ودرس الآداب واللاهوت فى مدرسة بالنسيا الإسبانية التى

أصبحت فيما بعد جامعة بالنسيا. أسس جماعة الدومينيكان فى مدينة تولوز الفرنسية مع ستة من أتباعه وحصل على موافقة البابا فى عام ١٢١٦.

ديداكس: هو ديجو دى أسيبو أسقف أزوما بمملكة قشتالة الإسبانية. اصطحب كاهنه الذى أصبح فيما بعد القديس دومينيكوس فى رحلة دبلوماسية إلى الدنمارك بأمر من الملك ألفونسو الثامن ملك قشتالة لتأمين عروس ولى عهده الأمير فرديناند. أثناء مرورهما فى رحلتهما بجنوب فرنسا اختلطا بطائفة الكاثارية، ووجدا أن أتباعها على درجة كبيرة من التعليم والتهذيب والزهد والتقشف. وفى العام التالى مكثا بجنوب فرنسا، وبذلا كل جهودهما فى القضاء على هرطقة الطائفة الكاثارية. ولكن بابا روما أمره بالعودة إلى الأبراشية فى قشتالة، وتوفى فيها فى عام ١٢٠٧.

والدس: (١١٤٠ - ١٢١٨) بيتر والدس مؤسس حركة الوالدسية وهى حركة مسيحية. كان أول من قدم ترجمة العهد الجديد من الكتاب المقدس فى لغة أوربية حديثة غير اللاتينية. فى عام ١١٨٤ تم حرمان بيتر والدس بواسطة البابا لوسيوس الثالث.

إينوسنت الثالث: (١١٦١ - ١٢١٦) اسمه الحقيقى لوتاريو دى كونتى من عائلة كونتى الغنية الشهيرة التى أخرجت تسعة من ضمنهم لوتاريو تولوا البابوية فى روما. درس إينوسنت الثالث اللاهوت فى جامعة باريس والقانون فى جامعة بولونيا وتولى بابوية روما فى الفترة من عام ١١٩٨ وحتى وفاته فى عام ١٢١٦. دعا إلى

الحملات الصليبية ضد المسلمين وضد الهراطقة من الطوائف المسيحية مثل الكاثارية وغيرها.

القديس ألبرتوس العظيم: (١١٩٣ - ١٢٨٠) هو ألبرتوس ماغنوس لاهوتى ألماني، ولد فى بافاريا، ودرس الفلسفة والفيزياء والطب فى جامعة باديفا الإيطالية. كان من دعاة التوافق السلمى بين العلم والدين. فى الثلاثين من عمره انضم إلى جماعة الدومينيكان ودرس اللاهوت فى جامعة بولونيا ثم قام بتدريس اللاهوت والفلسفة فى جماعة باريس ومدارس الدومينيكان فى ألمانيا، ويشتهر بأنه أستاذ توماس الأكويني.

بورفيريوس: (٢٣٢ - ٣٠٥) فيلسوف يونانى من أنصار الأفلاطونية الحديثة، وهو تلميذ أفلاطون وقد كتب مؤلف عن سيرة أستاذه أفلاطون. كتابه «مدخل إلى تصنيفات أرسطو» أو «الإيساغوجى» - كما يشتهر - انتقل إلى العرب ومنهم إلى أوروبا، وأصبح من أكثر الكتب توقيرا وتعظيما فى مجال الفلسفة والمنطق فى أوروبا إبان عصر النهضة.

بويثيوس: (٤٨٠ - ٥٢٤) فيلسوف إيطالى ولد فى روما لعائلة عريقة خرج منها أباطرة وقناصل كثيرين للدولة. بويثيوس نفسه كان قنصلا لمملكة القوط الشرقية فى عام ٥١٠. ترجماته لأعمال أرسطو فى المنطق كانت هى الوحيدة المتاحة من أعمال أرسطو فى أوروبا حتى القرن الثانى عشر الميلادي. ولكن بعض من تلك الأعمال كان خليطا من الترجمة وتعليقاته التى تعكس آراء أرسطو وأفلاطون معا.

فينسنت دوبوفيه: (١١٩٠ - ١٢٦٤) رجل دين مسيحى من جماعة الدومينيكان غير معروف على وجه الدقة تفاصيل عن حياته، مثل متى ولد ومتى مات وما هو معروف عن ذلك شيء تقريبي. كُتُبه «المرايا الكبرى» التى تحتوى على ثلاثة أجزاء «مرايا الطبيعة»، و «مرايا المذاهب»، و «مرايا التاريخ» تعتبر الموسوعة العلمية الأكثر شهرة فى العصور الوسطى.

كالسيديوس: فيلسوف من القرن الرابع الميلادى ويعتقد أنه كان مسيحيا، هو الذى ترجم كتاب «طيماوس (الحوارات)» لأفلاطون من اليونانية إلى اللاتينية تقريبا فى عام ٣٢١ ميلادية وقدم شروحات كاملة له. وكان كتاب «طيماوس (الحوارات)» هو الكتاب الوحيد الذى كان يُعرف لأفلاطون فى الغرب على مدى ثمانية قرون كاملة. تضمنت شروح كالسيديوس كذلك معلومات مفيدة عن علم الفلك اليونانى.

روجر بيكون: (١٢١٤ - ١٢٩٤) فيلسوف وعالم لاهوت مسيحى ولد فى إنجلترا فى عائلة غنية. تعلم بجامعة أوكسفورد وعمل أستاذ بها. انضم إلى جماعة الفرنسيسكان. تأثر كثيرا بالعلماء العرب والعلوم الإسلامية، وخاصة ابن الهيثم فى دعوته إلى التجربة لإثبات النتائج العلمية. سُجن فى عام ١٢٧٨ بتهمة نشر أفكار العرب. أُطلق سراحه بعد عشرة أعوام، وواصل أبحاثه ودراساته حتى وفاته فى عام ١٢٩٤ على الأرجح.

راموند لول: (١٢٣٢ - ١٣١٥) فيلسوف وكاتب ولاهوتى كاتالونى كان على علم بالثقافة العربية الإسلامية والثقافة

اليونانية. كتب فى كتبه مدافعا عن المسيحية ضد الإسلام وضد ابن رشد، وكرس نفسه للتبشير وسط المسلمين فى شمال إفريقيا. وقضى نحبه فى إحدى جولاته فى الجزائر، حيث أثار عمله التبشيرى سخط العامة فهاجموه وقذفوه بالأحجار.

نيقولا فلاميل: (١٣٣٠ - ١٤١٨) كاتب وناسخ وناشر فرنسي. كان له اهتمام بعلم الخيمياء والصنعة. تحولت حياته إلى أسطورة من الأساطير، نجح فى الوصول إلى حجر الحكماء، وتوصل إلى صنع إكسير الحياة، وحصل هو وزوجته على الحياة الأبدية. لا يزال منزله الذى بناه عام ١٤٠٧ موجودا فى باريس، ويعتبر أقدم منزل من الأحجار فى المدينة الباريسية. يُنسب له كتاب "شرح أسرار الرموز الهيروغليفية" الذى يتعلق بعلم الخيمياء، ولكن الدراسات الحديثة تشكك فى ذلك.

جابر بن حيان: (٧٣٣ - ٨١٣) هو أبو عبد الله جابر بن حيان بن عبد الله الكوفى الأزدى فيلسوف وكيميائى، يُطلق عليه لقب أبو الكيمياء الحديثة لكونه السبب فى تحويل الخيمياء من خرافات وأساطير إلى علم ذى قواعد وأصول يعتمد على التجربة والبحث. له الفضل فى اكتشاف واختراع العديد من المواد الكيميائية التى لا تزال تستخدم حتى الآن فى الصناعة والتعدين مثل: النشادر، وماء الذهب الماء الملكي، والبوتاس، والقلويات.

إنستيتوريس: (١٤٣٠ - ١٥٠٥) اسمه هنريك كرامر، رجل دين مسيحى وقاضٍ. انضم فى شبابه إلى جماعة الدومينيكان فى مدينته الأصلية، تولى القضاء ثم ترقى فى المناصب إلى أن أصبح

الساعد الأيمن لرئيس أساقفة سالزبرج. فى عام ١٤٨٥ ألف مع مواطنه جاكوب سبرينغر كتاب "مطرقة الساحرات" يحكى فيه خبرته بوصفه قاضيا فى محاكم التفتيش.

جاكوب سبرينغر: (١٤٣٥ - ١٤٩٥) رجل دين مسيحى ألماني، وُلد فى مدينة رينفلدن التى أصبحت فيما بعد جزءا من النمسا، انتمى لجماعة الدومينيكان فى مدينته، أصبح أستاذا للاهوت، ثم عميد كلية اللاهوت بجامعة كولونيا. والرأى السائد أنه اشترك فى تأليف كتاب "مطرقة الساحرات" مع هنريك كرامر السابق الذكر.

ليدوينا: (١٣٨٠ - ١٤٣٣) قديسة مسيحية، ولدت فى مدينة سخيدام الهولاندية. فى الخامسة عشر من عمرها وقعت وهى تزاول التزلج على الجليد فأصيبت بكسر فى أحد أضلاعها، ثم توالت عليها الأمراض. ويقال: إنها مرضت بكل الأمراض ما عدا الجذام. ويقال أيضا: إن ما يخرج من جسمها من فضلات وقيء وصديد إلى آخره، كانت لها رائحة عطرة مثل رائحة المسك. وأُعتبر ذلك دليلاً على قربها من الله.

فيثاغورس: (٥٨٢ ق م - ٤٩٦ ق م) عالم رياضيات وفيلسوف إغريقي، صاحب نظرية فيثاغورس فى الهندسة التى تقول: "مربع طول الوتر فى المثلث القائم الزاوية، يساوى مجموع مربعى الضلعين الآخرين". أسس جماعة دينية تحت اسم الفيثاغورسية تعاليمها خليط من الرياضيات والموسيقى وتعاليم أخرى مثل تناسخ الأرواح. يحيط بحياته ومماته وأعماله الكثير من الغموض وأغلب ما كتب عنه كان بعد وفاته بقرون.

بيكو ديلا ميراندولا: (١٤٦٣ - ١٤٩٤) جيوفانى بيكو ديلا ميراندولا فيلسوف إيطالى من عصر النهضة، ولد فى عائلة أرستقراطية غنية وفرت له البيئة المناسبة للتفرغ للعلم. قابل مارشيللو فيتشينو وتأثر به ويعتبر أحد تلاميذه. تم اتهامه بالهرطقة ولكن أسرة ميديتشى القوية حمته. مات فى الواحدة والثلاثين من عمره.

لويس الحادى عشر: (١٤٢٣ - ١٤٨٣) ملك فرنسى ابن شارل السابع ملك فرنسا. تولى الحكم فى الفترة من عام ١٤٦١ إلى ١٤٨٣. كرس حياته بعد اعتلائه العرش لإنشاء دولة قومية جديدة، تقوم على تركيز السلطة فى يده. وقد حقق هذه الغاية رغم التفوق الحربى لأعدائه النبلاء العظام وذلك عن طريق الرشاوى والدسائس.

سيكستوس الرابع: (١٤١٤ - ١٤٨٤) البابا رقم ٢١٢ للكنيسة الكاثوليكية فى روما. تولى البابوية من عام ١٤٧١ وحتى مماته. يعرف بأنه أشهر بابوات روما فى عصر النهضة الأوروبية. وهو الذى أسس كنيسة سيستينا أكبر كنائس المقر البباباوي، ودعا مايكل أنجلو لرسم لوحته الشهيرة على سقفها الداخلي، ولكنه كذلك اشتهر عنه فشله السياسى وأنه كان السبب فى اندلاع حروب وفوضى فى إيطاليا لا داعى لهما.

خيمنيز دى سيسنروس: (١٤٣٦ - ١٥١٧) كاردينال ورجل دولة إسباني، تولى رئاسة محاكم التفتيش التى عقدت ضد المسلمين واليهود والملحدين. أسس جامعة مدريد الملكية وتولى الإشراف على تراجم الإنجيل إلى اللغات المختلفة. يقول عنه المؤرخ الكبير جون إليوت: «إن الفضل فى وصول إسبانيا إلى أن

تصبح أقـوى دولة فى العالم يعـود فـى أغلبـه إلى رجلين همـا الملك فرناند الثانى والكاردينال خيمنيز».

ميسرة عفيفى

اليابان يوليو ٢٠١٢

الكسوف

«لقد طرد الرب الإنسان من الجنة، ولكى لا يقترب منها ثانية، أحاطها بجهنم»

لاكتانتيوس

كتاب "المبادئ الإلهية"

سأبدأ من الآن تسجيل ذكرياتى الشخصية، أو من الأفضل أن نطلق عليها اسم اعترافات، ولكونها اعترافات فقد أخذت عهدا على نفسى كمسيحى ألا أكذب. وألا أحكى إلا الحقيقة فقط. فى البداية أُقسِمُ باسم الرب على ذلك. وإعلان هذا القسَم هنا له سببان؛ السبب الأول هو من أجل قارئ هذا الكتاب. فأى شخص لابد أن يشعر بريبة وشك تجاه كتاب بالغ الغرابة كهذا الكتاب، وأنا لا أرى خطأ فى ذلك؛ لأنه كتاب من النوع الذى مهما حاول القارئ أن يقرأه بحسن نية، فهو فى نهاية الأمر غير قادر على بث الثقة فى نفس قارئه، ولو حاولت استخدام الكثير من الكلمات، لحث القارئ على الثقة، فإنه على العكس سوف يميل أكثر وأكثر إلى الشك. من أجل ذلك كله فإنى أضيف إلى كلمات الكتاب كلمة واحدة هى قسَمى إلى الرب بقول الصدق. السبب الثانى لإعلانى القسم هو من أجلى أنا شخصيا. فأنا عندما أمسك بالقلم للكتابة، ربما أحاول، حين يخلو وعاء التجربة، مواصلة الحديث باختلاق الكذب. أو من ناحية أخرى أحاول أن أكتم فى داخلى الكثير مما

ينبغي عليّ قوله، فحينئذ سوف أترك القلم فى منتصف الطريق؛ لأنى لا أجد فى ذلك أى اختلاف عن الحديث باختلاق الكذب. من أجل خوفى من كل ذلك فإننى أحذّرُ نفسى بوضع قسَمى فوق قلمي. ومن أجل تحقيق ذلك فإننى أرجو أن تصل كلماتى المتواضعة اللاحقة مع قسَمى السابق إلى جوار الرب.

لقد وصلت إلى مدينة ليون فى بداية صيف عام ١٤٨٣ قادما من باريس عبر طريق طويل من السفر وحيدا. وكبداية لهذه الاعترافات أجد أنه عليّ أولا أن أذكر بإيجاز التفاصيل التى أدت إلى قيامى بهذه الرحلة.

لقد كنت أنا طالب علم اللاهوت المنتسب لجامعة باريس، أملك فى مكتبتى المتواضعة نسخة قديمة من كتاب مخطوط. حينما أقول نسخة من كتاب، فإنه بصفة عامة لم يكن له معالم منسقة، فجلدته منزوعة، وجزء كبير منه مفقود، وأغلب صفحات نصفه الأول ضائعة، لذلك فمن الأفضل أن أطلق عليها وصف **جزء من كتاب مخطوط**. كان محتوى الكتاب عبارة عن ترجمة للغة اللاتينية لما يبدو فلسفة الوثنيين. لا أعرف اسم الكتاب؛ لأنه ضاع مع صفحاته المفقودة.

ولا أدرى الآن كيف و فى أية ظروف وصل هذا الكتاب إلى يدي، ربما أحضره أحد الأصدقاء معه عند عودته من رحلة إلى خارج البلاد وتنازل لى عنه. أو ربما استعرته منه ولم أرده حتى ذلك الوقت. نطاق علاقاتى وقتها كان محددا ومعروفا، لذلك لو حاولت البحث ولو بشيء من الصعوبة عن تفاصيل ذلك فلم يكن من

المستحيل الوصول إليها. ولكن لم يكن لذلك الأمر أهمية كبيرة، فلذا سأواصل على أى حال حديثى قدما.

لقد احتوانى اهتمام عظيم بهذا الكتاب مجهول الأصل. اهتمام وصل، بعد إعادة قراءة ذلك الجزء، إلى درجة تمنى الحصول على الكتاب كاملا بأى شكل كان.

بعد فترة عرفت اسم الكتاب. كان كتاب «مارشيللو فيتشينو» الذى نُشر فى فلورانسا عام ١٤٧١ تحت عنوان "مختارات هرمس". ولقد كان عليّ تحمل الكثير من المشقة والعناء لكى أصل إلى هذه المعلومة. وذلك لأن هذا الكتاب الشهير، الذى تطير شهرته الآفاق حاليا، كان لا يعلم به فى باريس وقتها إلا قلة محدودة من الناس. وبسبب ذلك باءت بالفشل كل جهودى فى الحصول على الكتاب الأصلي، ولم يكتب لها النجاح، فقد حاولت بكل الطرق أن أحصل عليه أثناء دراستي، ولكن فشلت محاولاتى جميعا.

ولكن أحد زملاء الدراسة الذين سمعوا بحكايتى هذه، نصحنى بالذهاب إلى مدينة ليون قائلاً:

- «بالطبع لن تستطيع الحصول عليه هنا فى باريس، لكن فى ليون المزدهرة بالتجارة مع دول البحر المتوسط، ربما تستطيع الحصول معه على **هذا النوع من الكتب**».

وأضاف:

- «ربما كانت هناك بعض الصعوبات لو قلت لك اعبر جبال الألب واذهب إلى فلورانسا، ولكن الذهاب إلى ليون فقط ليس شيئا صعبا على الإطلاق».

لم أكن أعلم ما إذا كانت هذه النصيحة تحتوى على الحقيقة أم لا. ولكنى وخاصة الآن، أعتقد أنها على العكس كانت أكثر شيء يدعو للريبة. والسبب هو أن فكر فيتشينو جاء إلى ليون على يد "سامفوريان شامبيه" بعد مرور وقت طويل من تلك النصيحة.

لكنى وقتها لم أستطع التأكد من صحة تلك المقولة؛ وذلك لأنى لم يكن لدى لا الوقت الكافى ولا المعرفة الكافية للتأكد منها. كان ذلك سببا فى أننى، ورغم وجود بعض الشكوك فى داخلى تجاه تلك النصيحة، قررت على أى حال اتباع نصيحة ذلك الزميل، فانتهزت فرصة حصولى على الدرجة الجامعية وقررت مغادرة باريس وحيدا.

كان ذلك العامل المباشر فى توجهى إلى ليون. ولكنى شخصيا غير مقتنع بهذا الشرح الآن؛ ولذلك أريد أن أضيف بعض الأمور الصغيرة علاوة على ما سبق. وهى أن التفاصيل سالفة الذكر لا تتعدى كونها نقطة التلاقى التى تربطنى بالرحلة.

.... لقد ذكرت عبارة هذا النوع من الكتب، وهى مؤلفات الفلاسفة الوثنيين التى بدأ ظهورها فى بعض مدن ساحل البحر المتوسط منذ أكثر من مائة عام والآن عادت للظهور ثانية. وكتاب "مختارات هرمس" لفيتشينو هو واحد من أشهر وأهم تلك المؤلفات. بالطبع كان السبب الذى جعلنى أرحل إلى ليون هو من أجل الحصول على كتاب "مختارات هرمس". ولكن أيضا هناك سبب آخر وهو تمنى الحصول معه على بعض من تلك المؤلفات فى تلك الأرض.

كان لدى اهتمام عظيم تجاه الفلاسفة الوثنيين من القدماء. إذا تحدثتُ تاركا الخوف من الغرور جانبا، فهو اهتمام صادر عن نفس الوعى بالأزمة التى تقترب، الذى أعتقد أنه احتوى القديس توماس

فى القرن الثالث عشر. إنه الهمُّ والعناية بالمستقبل. فمثلما أخضع القديس توماس فكر أرسطو وفلسفته إلى علِمنا اللاهوتي، فقد أحسست إلى حد الألم بأن هناك ضرورة مرة أخرى إلى إخضاع فلسفة الوثنيين تحت سيطرة نظام الرب. لم يكن قلقى يرجع بالضرورة إلى مسألة القبول فقط عند أفلاطون أو من جاء بعده من طائفة أكاديمية الإسكندرية. فالموجات العالية القادمة ليست فقط هى مؤلفات "هرمس مثلث العظمة" التى ذكرتها آنفا، ولكن أيضا غير ذلك المؤلفات التى تشربت السحر والفلسفة الموجودة فى العالم كله، وتحاول بالفعل الوصول إلينا. كان خوفى من طوفان تلك الفوضى العاتية. إن الماء الآتى من أعالى النهر مع قشر السمك المتلألأ لربما يعطينا بالفعل كثير من الارتواء. لكنه لو فاض مرة فى الأرض فحتما ولابد سيفسد الكثير من الزرع. وبالطبع فِكْر الوثنيين لا يختلف عن ذلك. يجب علينا حماية إيماننا من الوقوع فى أزمة كبرى بسبب ذلك الطوفان. بل يجب فى الحال وبمنتهى السرعة تجنّب هذا الفيضان الذى يحاول أن يبتلع نظامنا تماما ويغرقه فى الحضيض. ومن أجل هذا، فقد وصل إيمانى إلى الحد الذى اعتقدت معه أن المهمة الوحيدة التى أُعطيت لى فى هذه الدنيا هى إعطاء معنى جديد مرة أخرى، لا بل إظهار المثالية القديمة وإعادتها، لمحاولة الجمع بين علم اللاهوت وعلم الفلسفة بعد أن زحف القِدم على هذا المعنى بالفعل.

.... الآن وعندما أعيد النظر إلى ذلك الوقت، فقد كان عليّ أن أتحمل بعض الذكريات الأليمة. وأقول ذلك لأنه إزاء حماسى هذا، قابلنى زملائى فى جامعة باريس ببعض البرود والسخرية.

كان ذلك بسبب نظرتهم التفاؤلية. كان أكثرهم يعتقد أن رأيى عن تهديد فلسفة الوثنيين لنا، لا يزيد عن كونه مجرد خوف من الخيال.

وقال أحدهم:

- «إذا كان الأمر كذلك، وبما أنك قد أصبحت عضوا فى جماعة الدومينيكان، فربما من الأفضل أن تصبح أنت أحد المحققين فى محاكم التفتيش».

ثم ضحك فى برود.

بالطبع هذه النصيحة الناتجة عن اختلاف وجهات النظر لم تكن هى ما أتمناه.

ليس فى نيتى إنكار نظام محاكم التفتيش أو رفضه. لكن فشلها الآن زاد بالفعل أكثر من فشلها وقتئذ. علاوة على ذلك هل بالفعل استطاعت أن تكون قوة تحمينا من طوفان فلسفة الوثنيين؟ الحقيقة أنه كانت هناك محاكمات لساحرات الهدف منها جمع المال، ولم يتردد أحد فى ترك بعضها للعامة والغوغاء يصدرون هم أحكامها. بالطبع أنا لا أقول أن كل الحالات كانت كذلك. لكن حتى لو كانت هذه المحاكم تؤدى وظيفتها بشكل طبيعي، فالقبض على الهراطقة والحُكم عليهم بالموت حرقا مع ترك الفكر ذاته الذى يقود الناس إلى الهرطقة حرا محافظا على حيويته، لا يحل المشكلة أبدا.

أنا فى الأصل لا أتمنى طرد فلسفة الوثنيين، ولكنى أريد - كما هو ظاهر أعلاه - امتصاصها، وجعلها تابعة لعلمنا نحن، علم اللاهوت. واقعيا فإن الدراسات الفلسفية للوثنيين هى حقائق فى

أجـزاء منهـا. لكن الجـهـالات التى بهـا تؤدى حـتـمـا إلى الوقـوع فى أخطاء عديدة. وبالتالى يجب علينا فى تعاليمنا الدينيـة أن نتناول هذه الأفكار ونلقى عليها الضوء واحدا بعد الآخر، وندحض الجزء الخاطئ فقط فيها.

أؤكد على ذلك لأننى أسـاسـا أعـتـقـد أن إمكانية طرد أفكار ما بالكامل مستحيلة. طرد الأفكار، وهى تحتوى على آراء فلسفية صحيحة، وبسبب هذه الصحة فهى بالضرورة تُبعث من جديد. ترجع دون أى انتظار وبها الأجزاء الخاطئة التى ستعتبر فى ذلك الوقت صـحـيـحـة. وبسبب ذلك يجب علينا مع القطع بخطأ هذه الأجزاء بشكل كامل وشامل، إخضاع هذه الفلسفة كبنية متكاملة داخل نطاق تعاليمنا الدينية. ولا يجب السماح بإطلاق سراحها خارج نطاق تعاليم ديننا بحجة طردها. لو قلت فإنه يجب إصلاح حتى الماء المحتوى على سم وتحويله إلى نبيذ عنب نافع. - أنا كنت أؤمن بإمكانية ذلك؛ لأن تعاليم الكتاب المقدس التى تحتوى بالفعل على عظمة وعمق فى المعانى يجعلان ذلك ممكنا حقا.

ولكن أحدهم أخذ كلامى هذا بعكس معناه واعترض عليه بالقول:

- «هذا ما هو إلا تكبر منك وغطرسة. بالفعل كما تفضلت بالقول إن تعاليم الكتاب المقدس هى غاية فى العظمة والعمق. وبالمقارنة فإن فلسفة الوثنيين الجهلاء تحتوى على الكثير من الأخطاء. ولكن لكى تدحض هذه الأخطاء، ماذا تستطيع أنت أن تحكى عن شيء واحد فى هذا الكون البالغ الضخامة؟ فأنت لا

تتعدى كونك مخلوقا صغيرا ضعيفا، فكيف لك أن تحيط علما، بل أن تفهم نظام الكون الكامل الذى خلقه الرب، ومن أين لك القدرة على تفسيره. فما بالك بمحاولة أن تفهم الرب من خلاله! ....»

إزاء مثل هذا التفكير، فإن من اقتنع وأماء برأسه موافقا لم يكن واحدا ولا اثنين. لقد استخدمت منذ قليل مثال نبيذ العنب المعتاد؛ لأنهم كما لو كانوا طبعة واحدة يستشهدون كالمعتاد بالكلام المشهور الذى قاله "بونافينتورا".

لكننى لم أر فى ذلك ورعا، ربما ساعد فى وجود اعتقادى هذا، احتقارى لبسمتهم الباردة المائلة على شفاههم؛ لأننى كرهت من أعماق قلبى نظرتهم لبعضهم البعض بشفاههم الذابلة الشاحبة المرتجفة، التى تدل على استهزائهم بمن يحاورهم، وهم يحرصون على ألا يجرح أحد كبرياءهم الزائف. لكن سبب إحساسى أن هذه الكلمات ما هى إلا تعبير عن الكسل والخنوع، يرجع بالطبع أصلا إلى مسألة الاختلاف بين آرائنا.

من الصعب أن أشرح موقفى وقتها فى كلمة واحدة. لكن رغم أن الرحلة اعتبرت رسميا رحلة حج صغيرة لمدة ستة أشهر، فإننى كنت قد حصلت الآن على درجتى الجامعية، وتحدد لى بالفعل وظيفة أستاذ فى الجامعة، فى هذه الظروف كان السماح لى بالسفر دون أى محاولة لمنعى، شيئا يقترب من التعاطف مع وجهة نظرى تلك. فمن المفروض أن مثل هذا الطلب الأنانى منى لا توجد أى فرصة لقبوله أصلا. وبسبب ذلك فحتى لو قلنا إنه تمت

الموافقة على الطلب، فلا يوجد أى تأكيد على بقاء الوظيفة الجامعية بعد العودة.

عندما التحقت بالجامعة فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر، كان الصراع الفكرى الكونى قد انتهى فى ذلك الوقت تقريبا. وقد سيطرت بالفعل «نظرية الأسمانية» nominalism على الوسط العلمي. بالطبع حتى لو قلنا جامعة باريس فهى لم تكن استثناء، حتى أقرانى فى جماعة الدومينيكان التى أنتمى لها، فيهم كثيرون ممن يؤمنون بنظرية الأسمانية. وهذه الحقيقة أصابتنى بكثير من اليأس. أقول هذا؛ لأن انتسابى إلى ذات الجامعة وعضويتى فى دير الجماعة، سببه فقط احترامى وتقديرى للقديس توماس وليس لأى سبب آخر. لقد ظل إحساس العداء تجاه فكر ابن رشد ونظريته السوفسطائية فى ازدواج الحقيقة، حتى لو كان هناك استثناءات مثل «وفيفر ديتابل»، إلا أن عدم الإيمان المبالغ فيه تجاه أرسطو ذاته، جعل أرسطو يمثل للمؤمنين بالأوكامية رمزا للأفكار القديمة التى يجب تحطيمها بوصفها عقائد دينية، وكان زملائى يقفون نفس الموقف تقريبا حتى تجاه نظرية Summa التى وضع أساسها القديس توماس.

ولكننى مع ظهورى على أننى من أتباع العقيدة التوماسية الغريبة والمتخلفة عن اللحاق بالعصر، مما لا يتناسب مع عمرى، فإننى لم أكن وحيدا أو فى عزلة مطلقة؛ لأنه كان يوجد فى ذلك الوقت فى جامعة باريس أناس – ولو أنهم كانوا أقلية – يبذلون جهدهم فى سبيل إعادة الحياة إلى العقيدة التوماسية، وذلك بمواصلة العمل

الذى فعله كابريولوس فى كتابه «حماية لاهوت القديس توماس». كنت أحس مع اختلاطى بهؤلاء بشعور نادم غير ذى جدوى على عدم ولادتى قبل نصف قرن فقط من الآن. لقد مات كابريولوس فى السادس من أبريل عام ١٤٤٤م. وبالمناسبة، كان ميلاد الكاردينال "جايتانوس" الذى كتب أروع تفسير لأفكار توماس فى السنوات الأخيرة، فى العاشر من فبراير عام ١٤٦٩م. بما يعنى أنه فى العام الذى بدأت أنا فيه رحلتى هذه كان هو عبارة عن فتى صغير فى الثالثة عشر من عمره. .... عند النظر إلى هذه الحقيقة، ربما يمكننى القول إن الأيام التى أضعتها فى أبحاث توماس تبدو كأنها جدول صغير ينساب فى وادٍ بين هاتين القمتين.

ورغم قولى هذا فلم أكن على رضا كامل تجاه كونى توماسى العقيدة. بالطبع كنت أحمل تقديرا واحتراما للاهوت القديس توماس، لكن من ناحية أخرى، وبسبب إحساسى بعدم الاكتفاء تجاه ذلك، ومن أجل فهم متقدم للكون، أى بمعنى محاولة فهم أعمق للرب، كنت أحمل اعتقادا غير واضح بضرورة تخطى ذلك. من أجل ذلك أعتقد بخلاف ما قد يظن الآخرين، إننى كنت لا أحمل أفكارا ضيقةً، بل بالعكس هى أفكار مبهمة غير واضحة المعالم. مثلا، بالنسبة لوليم الأوكامى لم أستطع أن أتقبل رأيه نهائيا، لكن من ناحية أخرى كنت أحس بألفة تجاه أبحاث جون سكوتس على عكس ما قد يبدو للبعض. لكن بالطبع فى أجزاء منها فقط. كذلك تلقيت من لاهوت "كوزانوس" تأثيرا ضخما فيما يتعلق بقضية مكافحة فلسفة الوثنيين.

كان عدم وفائى لمسئولية كونى توماسى العقيدة هو بالطبع أحد الانتقادات التى واجهتها أثناء الاستعداد للسفر، زملائى كانوا يشكّون فى عودتى للجامعة، معتبرين أن رحلتى ما هى إلا هروب من البحث العلمى، لكن هذا الرأى كمن يشبّه رحلتى بقرار أحد القديسين للسفر، كلاهما حكم خاطئ تماما ولا يصيب كبد الحقيقة، والسبب واضح فيما سبق من حديث، إذا قصرنا الحديث فيما يخص القديس توماس، لا يوجد داع لشرح تأثيره الكبير عليّ لدرجة أن آرائى الفكرية الحالية تعود فى أغلبها إلى نظرية خلاصة اللاهوت summa، لكن إذا تكلمت بنوع من البرود، فإنه يُخيّل إلى أننى فى ذلك الوقت، كنت أحمل حبّا مفرطا تجاه أعمال القديس توماس وإنجازاته المتألقة وليس تجاه النظرية ذاتها...، ربما يكون ذلك نوعا من التواضع الزائد عن الحد، لكنى أرى على أى حال أن أفكارى غير ناضجة، ولكنى أرى كذلك أن أبحاثى واكتشافاتى فيما يتعلق بفلسفة الوثنيين القدماء ليس من أجل إنقاذ الناس من الهرطقة فحسب، ولكن المفروض أيضا أن تكون أحد أسباب بناء علم لاهوت جديد، فمثلما كانت فلسفة أرسطو مثالا لذلك، فأننى أؤمن أنه لو تم شرحها شرحا سليما؛ لأصبحت فلسفة الوثنيين - التى لا نعرفها بعد - علامة فى طريق جديد يقود إلى الرب.

...، كانت هذه هى التفاصيل الأخرى التى أحاطت بالرحلة، ولقد استهلكت الكثير من الكلمات لكى أحكيها، لكن لم يكن من الممكن تلافى ذلك، فمن أجل أن أستمر إلى الأمام فى إكمال الحديث، كنت أعتقد أن هناك ضرورة مُلحّة فى التأكد من هذه التفاصيل، من أجل القارئ وكذلك من أجلى أنا شخصيا، وليس من أجل أحد آخر.

من الآن سأكتب تفاصيل هذه الرحلة متتبعا أيامها ولياليها.

بعد وصولى إلى ليون وقضائى بضعة أيام هناك عرفت أن صعوبة وصول الكتاب الذى أريده إلى يدى أكبر مما توقعت، كان ذلك بسبب مشكلة ذات وجهين، الوجه الأول كان المشكلة الأساسية وهى عدم عثورى على الكتاب، أما الوجه الثانى فكان من الناحية العملية حيث كان الدير الذى ذهبت إليه فى ليون يُلزمنى أنا القس الزائر بأداء الدروس الدينية وكذلك الذهاب لجمع التبرعات.

زاد توترى بسبب عدم سير الأمور كما أريد، لكن بعد مرور عشرة أيام من وصولى وبمساعدة زميلى فى الغرفة، حصلت على فرصة سعيدة غير متوقعة، ألا وهى فرصة لقاء أسقف مدينة ليون.

كان الأسقف رجلا لا يهتم بالمظاهر، وكان ذا وجه أبيض جميل، من النظرة الأولى تعرف أنه يفيض لطفا وحنانا، أنصت الأسقف إلى حديثى الذى شابه بعض التلعثم بسبب التوتر والتعب وبسبب فرحتى بمقابلة عظيم، وعندما انتهيت من الحديث، عبر عن رأيه أنه من أجل الحصول على الكتب المذكورة، فلابد من الذهاب - كما توقعت أنا - إلى فلورانسا، أوضح الأسقف فكرته كما يلى:

- «بالطبع كما تقول يمكنك أن تحصل على هذه المؤلفات لو أنك طلبت من أحد التجار الذين يقومون بالذهاب إلى فلورانسا والعودة منها، حتى ولو استغرق ذلك الكثير من الوقت، وإذا اقتصر الأمر على كتاب مارشيليو فيتشينى "مختارات هرمس" فقط فأنا أملك نسخة منه وإذا لم يكن لديك مانع فيمكنك أن تنسخه، ولكنى

أرى أنه من الأفضل لك أن تذهب إلى فلورانسا وأن ترى بعينيك وتتأكد مما يحدث فى تلك الأرض، إذا كنت تتخوف من تزايد أعباء الرحلة عليك فمن الممكن أن أرتب لك فرسا وسيلة ركوب».

استمعت إلى ذلك صامتا وأنا أحنى رأسى موافقا بعض الأحيان، خاصة أن آخر كلمات الأسقف التى لم أكن أتوقعها، جعلتنى مع اندهاشى لها أحمل عظيم الامتنان لهذا العطف، لكن ما أثارنى أكثر كان الحكايات العديدة التى استمر فى قولها عما يدور فى تلك الأرض، قال الأسقف: إنه عند ذهابه إلى روما فى مهماته الرسمية يمر على فلورانسا كثيرا فى طريقه، وتكلم بالتفصيل عن أكاديمية أفلاطون والمعنيين بشأنها، لم يتكلم فقط عن علم اللاهوت والفلسفة ولكن أيضا عن الأدب والرسم، وكذلك أيضا عن أحوال الناس ومعيشتهم بل ونوعية إيمانهم، وهو يمزج ذلك أحيانا بآراء علمية وتاريخية مبهرة.

قال الأسقف:

- « ... من أجل ذلك يمتد فى جنوب الألب عالم يختلف تماما عن عالمنا، ربما سيبدو من قولى ذلك أنه عالم سحرى ورائع، لكننى لا أستطيع الحكم فى الواقع هل هو عالم جيد أم لا، ولا أستطيع القول ببساطة هل جبال الألب هو حصن يحمى عالمنا الذى نحن فيه الآن، أم هو حامية تحرس ذلك العالم الجديد، لذا أريدك أن تذهب لتتأكد بنفسك فعليا من ذلك....».

طريقة حديث الأسقف الهادئة، جعلتنى أنا الذى تعبت من ضجيج الأفكار الجاهلة السائدة، أسمع فيها جِدة وحيوية، ثم أن

العمق الذى حملته تلك الكلمات، أحسست به الآن، بمعنى الآن ونحن فى القرن السادس عشر، أكثر بكثير عندما سمعته وقتها.

نسيت تدريجيا - وأنا أسمع شرح الأسقف - متاعب الطريق، وتولدت داخلى رغبة فى الذهاب إلى فلورانسا فى الحال.

لكن الأسقف وكأنه يتذكر ببطء شيئا ما قد نسيه، رفع جفونه ناظرا إلى وجهى بحماس وسألنى فى هدوء:

- «بالمناسبة هل لديك اهتمام بما يسمّى علم الخيمياء؟»

لم أفهم ما يعنيه الأسقف بذلك فعوجت رأسى بصمت مستفهما.

فأتبع الأسقف قائلا:

- «ذلك العلم الذى يهدف إلى تصنيع الذهب».

- «...، أجل، بالطبع أعرفه، ....»

- «فى الواقع، يوجد فى قرية قريبة من هنا رجل يحاول فى علم الخيمياء لفترة طويلة من الزمن، فعليا حقق بعض النجاحات، لكنه شخص غريب الأطوار شيئا ما، وكعادة من هم مثله يعمل بكل جدٍّ رغم فقر معيشته، أنا لم أقابله إلا مرة واحدة فقط، ولكنه له معرفة متعمقة بعلم فلسفة الطبيعة لا أستطيع أنا الوصول لها، وأيضا له علاقة وطيدة بما تسميه أنت فلسفة الوثنيين، بالطبع هو يحمل إيمانا لا شك فيه، لو لم يكن لديك مانع، ما رأيك قبل ذهابك إلى فلورانسا أن تحاول مقابلة هذا الرجل، أعتقد أنك ستجد فائدة منه بالتأكيد».

قال الأسقف ذلك وهو يراقب ردة فعلى، إذ لجمتنى المفاجأة، ثم أضاف:

- «القرية وهى ما يطلق عليها مستوطنة زراعية، تبعد حوالى عشرين فرسخا جنوبى غرب ليون، وهى تقع فى نطاق أبراشية مدينة فييان، فلا أعتقد أنها ستكون انحرافا عن طريقك إلى فلورانسا».

بعد أن فكرت لفترة وجيزة، قررت دون أى تردد اتباع هذا الرأى، بسبب ثقتى فى الأسقف وكذلك لأنى حملت شغفا كبيرا تجاه ذلك الخيميائى.

ثم مر يومان وبعد انتهاء عطلة عيد القديسين الكبير، تركت ليون وحيدا متوجها إلى القرية....

لا أستطيع أن أحكى هنا عن تفاصيل ما جال فى صدرى أثناء رحلتى من ليون إلى تلك القرية؛ لأن هذه القطع من الأفكار لم تتجمع فى شكل واحد، فهى متشابكة مع بعضها البعض، وكلما اعتقدت أن إحدى هذه الأفكار قد انقطعت، أراها فجأة تحيا من جديد، ثم تتقدم فكرة وتتأخر أخرى بالتبادل، ثم تتحطم حتى نهايتها، ورغم ذلك، توحى إليّ فقط أفكارا توشك على التفتح، بالضبط كما لو كانت مثل أشعة الشمس التى تتلألأ من وقت لآخر على صفحة نهر تعكر بعد انتهاء سقوط الأمطار عليه، مكونة اضطرابا ظلاميا كئيبا.

وفجأة أصابتنى وحدة لم أحس بها قط بوصفى مسافرا دائم الترحال فى المدن والطرقات، أثناء ذلك، لا أدرى ما هى تفاصيل ذلك، ولكن فى قلب الطبيعة الخلابة لجنوب فرنسا، أخذت أفكر

دون البحث عن إجابة فى كيفية وصول هرطقة دينية مثل المانوية إلى هذه الدرجة الرهيبة من الانتشار.

فليس هناك حاجة للقول: إن جوهر عقيدة المانوية هو حقد دفين تجاه هذا العالم، فمن ناحية هى تدعو الناس إلى الفسق والفجور، ومن ناحية أخرى تقودهم إلى المغالاة فى الزهد الذى لا يُعارض حتى الإخصاء، أنا لا أعرف بالضبط هل امتدت هرطقة الكاثاريين والألبيجيين شمالا إلى هذه الأقاليم أم لا، سواء أكان الفجور أو المغالاة فى الزهد فالخلاف فى الدرجة فقط، وكلاهما مثل مرض عضال خاص بهذا الزمان ينتشر فى كل مكان؛ لذا من الممكن أن نرى أشياءً شبيهة لأى منهما بطريقة أو أخرى، إن لم يكن فى مؤمنى ليون الفقراء تحديدا، لكن الذى بدأت الشك فيه الآن هو لماذا يجب أن يكون هذا فى الجنوب، لماذا يجب أن يكون هنا فى هذه الأرض ذات الأشعة الغزيرة، حاولت التفكير بشكل عفوى، هل هو بسبب القتال؟ أم هو بسبب مرض الطاعون؟ أم هو مجرد القرب جغرافيا من الشرق، ....

كانت هذه التأملات كالسفينة التى فقدت دفتها، وتوشك على الاختفاء دون معرفة هدف تصل إليه، عندها تسللت فجأة رائحة الأرض الحارة لتملأ أعماقى فتوقفت عن السير، وجففت العرق النازح من جبهتى، ونظرت إلى السماء.

- «هل هو بسبب الشمس؟»

.. كنت أكلم نفسى، فى تلك اللحظة، نظرت بعينى إلى تلك الشمس المهيبة المعلقة هناك، بدأت أشك فجأة، أليس من الممكن

أن يكون المنبع الأول لمثل هذه الهرطقة التى اندلعت، هو هذا القرص الساطع، بسبب هذا الشعاع وليس شيء آخر، بسبب هذا النور العملاق المتلألئ الزاهر القوى، بسبب توقع كئيب مظلم مختبأ فيه، أصبح الناس يحقدون على الأرض ويحتقرون عبء أجسادهم وثقلها.

لكن بمجرد أن فكرت فى ذلك حتى أحسست بعزلة ما غير مريحة إطلاقا تغلى.

- «... لا...، لا، لا يجب أن يكون الأمر هكذا، ...، ليس كذلك، ...، قطعا، ...»

لقد غضبت بشدة تجاه شيء ما، كان يتلوّى داخلى على الأرجح، إحساس ما، لا يمكن توصيفه، هل هو عشق أم هو حقد، ...، ثم لم يكن أمامى إلا أن أضحك بلا سبب ساخرا من الكلمات التى قلتها منذ برهة.

أملت عنقى لأسفل، لأصل بالأرض بصرى الذى تعب من الضوء، لعبت عينى فوق الطريق، عندها، لاحظت فجأة نقطة تتلألأ متألقة فى جسم الصخرة التى بجانبى.

عندما اقتربت، وجدته عنكبوتا أبيض فى حجم حبة الشعير، وضعت ركبتى على الأرض، ودنوت بوجهى منه ببطء، أخيرا وضحت صورته داخل مقلتى.

هذه الأطراف الرقيقة والصلبة، وهذا الهدوء وهذه الريبة، أصابنى دوار شديد فى وضح النهار.

بعد دخولى القرية، ذهبت كما أنا ودون خلع رداء السفر أو حذائه الطويل إلى مقر كاهن الإبراشية.

السبب الذى لم يجعلنى أتردد فى التوجّه مباشرة إلى الكنيسة، هو أنى كنت أحمل رسالة أعطانيها الأسقف فى ليون، هذه الرسالة من أسقف منطقة مختلفة، هى عمل نبع من كرم الأسقف بصفته الشخصية لا الرسمية، لظنه أنها ستنفعنى عندما أقابل كاهن هذه البلدة، وعندما لاحظ الأسقف - وهو يسلمها لى - قلقى وتخوفى، قال ضاحكا: «لا تقلق بهذا الشكل، سيُرتّب لك هذا الكاهن الأمر كما ينبغى».

تقع الكنيسة فى المدخل الشمالى الغربى للقرية كأنها تحميها كلها من العالم الخارجي.

توجد مقبرة واسعة بجوار الكنيسة وبشكل لا يتناسب مع جلال الكنيسة، تنتشر القبور عَرَضا على صفحة الأرض وكأنها تلضم الفتحات المتناثرة بين الأشجار المزروعة هنا وهناك، كانت فروع الأشجار تعلو نحو السماء وكأنها شرايين دم، وكانت الأوراق كأنها لحم يغطيها، بنظرة سريعة يمكن رؤية شواهد القبور البالية التى تبدو مثل قطيع ضخم من العجائز المحنيين تحتها من الذل.

عند النظر مرة أخرى بدقة وعمق إلى المقابر، نكتشف حقيقة، وهى أن المقابر الجديدة رديئة الصنع ومتواضعة، وعلى العكس المقابر القديمة، التى توشك أحجارها على التآكل، تبدو عظيمة، ولما سألت فيما بعد عن السبب، قيل لي: إن أغلب المقابر الجديدة هى لضحايا وباء الطاعون الذى تفشّى بشكل رهيب فى إقليم

«دوفينه» هذا فى العام التالى للعفو الكبير الذى أصدرته بابوية روما؛ ولأن أهل القرية كانوا يموتون بأعداد كبيرة فى وقت واحد مثل أوراق الشجر الجافة التى تتساقط بفعل رياح فجائية، فلم يكن لدى من بقى منهم على الحياة الوقت، ثم على الأرجح القوة النفسية لبناء مقابر.

الحقيقة أنه يتضح عندما ننظر إلى المقابر حديثة البناء، أن شواهدها ليست بالضرورة من الأحجار فقط، حيث إن بعضها من الخشب التالف، علاوة على ذلك كان هناك عدد كبير من القبور فقدت شواهدها، وأصبحت تُعْرف بصعوبة من الحشائش التى نبتت فوقها فقط أنها بقايا قبور.

هناك طُرفة صغيرة فى القرية تحكى حال المقابر فى تلك الفترة، وهى قصة سمعتها فيما بعد من أحد الذين شاركوا بالفعل فى حفر هذه المقابر.

طبقا لما قاله ذلك الرجل، فإن بقاء شواهد قبور حتى ولو كانت رديئة أو متواضعة كما كتبت منذ قليل، لهو من حسن حظ أصحابها، والسبب أنه عندما انتشر الطاعون بشكل لم يستطع أحد فعل شيء تجاهه، تم دفن الموتى كلهم فى مقابر جماعية بلا تفرقة بين كبير وصغير أو رجل وامرأة، لذلك، كانت تغطى فقط وجوه الجثث بأكياس ثم توضع داخل حفرة كبيرة فى أحد أركان منطقة المقابر، فإذا امتلأت الحفرة عن آخرها أُغلقت وغُطيت بالتراب، وفى أحد المرات، عندما حمل هذا الرجل الذى حكى لى هذه القصة، جثة جديدة كالعادة ودخل المقبرة، تدلّت رأس من

أحد الحفر التى من المفترض أن تكون قد أُغلقت وغطيت وقد تحللت بشكل قبيح لتصبح هيكلا عظميا سقط لحم الوجه وبانت أسنانه بوضوح، لقد أخرجت بواسطة حيوان وحشى، أخذ الرجل ينظر إليها لفترة واجما، وعندها جاء الرجل الآخر الذى حمل معه الجثة، فتحدث إلى ذلك الوجه الذى تعرّى قائلا: «هل أنت سعيد إلى هذه الدرجة برجوعك إلينا ثانية؟» وأصبحت هذه المزحة البسيطة فيما بعد حديث الأفواه فى القرية لوقت طويل.

أمّا أنا فَلا أسعد بهذه المزحة ولكنى كذلك لا أحمل تجاهها أى حقد، مثل هذه الكلمات، بالطبع ربما تكون مزاحا سيئا، لكنها كانت تحتوى على فشل عميق أكثر من كونها مجرد مزاح شرير، ولكنها تحتوى فى نفس الوقت على صلابة جادة تقاوم ذلك، وأنا لا أكره هذا العبث ولا هذا المزاح الذى أخطأ مكانه؛ لأننى أحس بشكل ما أنه يمكن تفهمه....

إذا حوّلنا أبصارنا تجاه مبنى الكنيسة، فسنجد أول ما يلفت نظرنا هى النافذة ذات الورود المعلقة على الباب الرئيسى الغربى، والتى تبلغ حوالى خمسة أقدام، النافذة هى المركز لواجهة المبنى، وتحيطها من الجانبين طيات مهيبة مدببة الرأس، وعلى سطح الحائط، نُحتت زخارف من طراز «الفلام بويان» المتوهّج وكأنها تلضم تلك الفتحات، الخطوط المنحنية تتضافر كلها مع بعضها البعض مثل نبات اللبلاب وتزحف صاعدة إلى أعلى، أسفل الحائط يمكن رؤية بوابة واحدة فقط، أركانها ضحلة، ولا يوجد بها نحت، ولكن فى المنطقة المثلثة أعلى البوابة نُحت تمثال ضئيل ومتواضع

للرب يسوع، بمشاهدة شكل السقف الرصاصى الخارجى، يمكن تخمين الشكل الدائرى المقبب للقاعة الداخلية، على الجانبين يوجد حائط إضافى صلد خارج للأمام لكى يسند السقف، وبسبب ذلك تبدو الأعداد الكبيرة من التصميمات الذهبية الموضوعة على وجه الحائط تكاد تحافظ بصعوبة على عدم السقوط، يوجد انطباع عام بالفوضى وعدم التناسق، ولكن مع ذلك ربما ينبغى الاندهاش من وجود قاعة مثلها فى قرية صغيرة منعزلة مثل هذه القرية، ظللتُ أتأمل باهتمام بالغ تأثير الموضة السائدة فى العمارة بأغلب جوانب المبنى، بداية من الزخارف ذات طراز «الفلام بويان» المتوهّجة، ولكن ما يبعث على الحزن، هو فقر المبنى وصغر حجمه، فقد أُنتزعت منه الهيبة، مثل قزم لوّن وجهه بالمساحيق والبويات الملونة، ويقوم بعمل بعض الألعاب المرحة التى تثير الشفقة، كنيسة القرية كانت بعيدة جدا عن السماء الزرقاء، ربما كانت الضخامة فى حد ذاتها أحد مسببات العظمة، ربما كان ذلك القول غاية فى البساطة، ولكنه فى نفس الوقت ودون توقع حقيقة عميقة للغاية، فى الواقع أن الضخامة التى يتم تقليصها تفقد بالفعل أشياء كثيرة.

فى الجهة الجنوبية للكنيسة، أى فى منتصف الطريق إلى منطقة المقابر التى حكيت عنها منذ قليل، تجمع كثيرون من أهل القرية فى شكل حشد، كانوا من العجائز والرجال والنساء، وفيهم أيضا من اصطحب معه أطفالا لم تدرك بعد ما يجرى حولها، تتضفق فوق رؤوسهم أشعة الشمس الباهرة الساقطة من بين أفرع الأشجار، هذه الأشعة التى تشبه انعكاس قشر السمك، تفرش

الأرض، ويظهر على الأرض بوضوح ظل كبير للصليب المرفوع فوق مبنى الكنيسة.

يُسمع صوت رجالى منفعل خارج من وسط الناس المتجمعة يختلط مع صوت متقطع ومنتفخ من الحرارة لحشرات الزيز.

- «يجب ألا تنسوا أنتم أيضا، الابتلاء الذى ابتلاه الرب لأيوب ...»

صوت صاف عالى النبرة مثل الشجر الجاف الذى ضربته الريح، وجوه الأهالى الذين ينظرون إلى صاحب الصوت، كأنهم انتبهوا الآن فى هذه اللحظة لعقيدتهم، وجوههم شاحبة متصلبة، جميعهم يملأهم نفس الندم والقلق والأمل.

لمحت من بين الصفوف هيئة الرجل الذى يتجمع حوله الناس، المتكلم راهب فى سن الكهولة يقف فى المنتصف بين ثلاثة أشخاص اصطفوا جنبا بجنب.

استمر الرجل فى وعظه متوجها إلى الأهالى وهو يمزج ذلك بحركات مبالغ فيها، لا تستقر نظراته فى مكان معين، بل ينتقل ببصره بين الحاضرين من وجه إلى آخر، وهو يتأكد من كلماته المندفعة بلا انقطاع واحدة بعد أخرى، ويهز ببطء ذقنه المنقسم إلى نصفين، وتكاد نقاط العرق تسقط فى التو والحال من خلالهما، وتابع وعظه:

- « ...، لقد أمر الله رسله قائلا: لا تحملوا شيئا للطريق، لا ذهب ولا فضة ولا نقود، ولا ترحلوا حاملين حقيبة سفر أو عصا أو حذاء، ولا يملكن أحد منكم ثوبين ....»

فى ذلك الوقت توقّفت على عيناه التى يشع من مقلتيها إيمان قابع فى أعماق القاع لمدة لحظة، ثم اعتدلت مرة أخرى، وفى تلك اللحظة لم تنقطع كلماته، ولقد حثت نظرة الراهب البسيطة عددا من الحاضرين للنظر خلفهم تجاهى، ولكنهم أعادوا النظر فى الحال إلى موضعه الأصلى بلا أى اهتمام، ويبدو أن الباقين لم ينتبهوا أصلا إلى ذلك، فقد ظلوا كما هم ناظرين إلى الأمام يستمعون إلى الوعظ بتلهف.

كلما نظرت تغلغل الشك داخلى؛ لأن التبجيل الذى يدفعه أهالى القرية تجاه مجرد راهب واعظ قد فاق وزاد عن الحد العادى، بالطبع لا خلاف على أن اجتماعهم لسماع الوعظ نفسه شيء رائع، لكنى كنت أشك فى سلوكهم الذى ينفعل مع حركات الواعظ حركة بحركة؛ وذلك لأنى أحس الآن بتردد فى تقبّل الإيمان الذى يعتمد بصفة شخصية على الحب والاحترام تجاه الراهب الواعظ واعتباره إيمانا سليما؛ لأنى كنت أعتقد أنه فى النهاية شيء آخر شبيه بالإيمان، ....

بعد فترة، حوّلت قدمى إلى الخلف، ورجعت إلى الطريق الذى جئت منه، وتوجهتُ نحو البوابة الغربية للكنيسة.

بدون حتى النظر إلى الوشاح الكتفى والمسبحة المتدلاة من الحزام الجلدى عرفت أن ذلك الواعظ ليس من جماعة الفرنسيسكان، ولكنه راهب واعظ من جماعة الدومينيكان مثلى تماما.

عندما وصلت إلى البوابة أعدت النظر إليه مرة أخرى، يصلنى صوته، لكن لم أستطع رؤيته بسبب اختفائه وراء ظل المبنى والأهالى.

كان الشمّاس هو من استقبلنى عند دخولى الكنيسة، أخبرته عن رغبتى فى مقابلة الكاهن وأنا أشير إلى الرسالة التى أحملها من أسقف مدينة ليون.

ألقى الشماس نظرة إلى الرسالة ثم قال بعد مرور لحظة، وبعد أن نظر إلىّ فى ارتياب:

- "...، تفضل بالانتظار قليلا."

وذهب إلى الداخل، كان رده مهملا مثل رابطة العنق المنحلة التى يرتديها.

جلست بعد أن أصبحت بمفردى على المقعد، ثم رفعت نظرى إلى المذبح، كان المبنى من الداخل بسيطا للغاية، بخلاف المظهر الخارجى الذى يبدو متعجرفا بلا معنى، خاصة المذبح الذى صنع بشكل متواضع جدا.

أطلقت فجأة تنهيدة طويلة.

كانت قاعة الصلاة تطرد الهواء الساخن فى بداية الصيف، وتمتلئ من الداخل ببرودة الأحجار، تصاعد من ياقتى هواء ساخن، أخذت ملابسى المبللة بالعرق تبرد فجأة وأصبحت ملتصقة بالجلد مثل العَلَقة.

أسلمت جسمى للمقعد وأغمضت عيناى، كان التعب معلقا بشدة فوق جفونى، أصغيت أذنى فسمعت صوت الوعظ فى الخارج، وهو يتضخم تدريجيا ويتراكم فى طبقات متوجها إلى السماء، يتردد صدى صوت الراهب العاصف بهدوء كما لو كان يهمس، بعد أن تم

تصفيته من خلال الحوائط الصخرية، كان عبارة عن هزة غريبة فى الهواء، لا يمكن التعبير عنها، هل هى صوت إنسان أم صوت آلة أم صدى، وأنا أستمع لهذا الصوت بلا وعى، ظهر وجه الراهب الواعظ فى مخيلتى، ربما كان إيمانه الداخلى قبل أن يعرب عنه هادئا على خلاف ما هو عليه بعد أن يظهره فى العلن، إيمان هذا الرجل غير المعلن والمختفى داخله لا يعلم به أحد، أحسست أنا على غير المتوقع أنه إيمان عجيب بشكل ما، ....

أخيرا ولأنه مهما انتظرت لم يظهر الكاهن بالمرة، تركت لأفكارى العنان وقد بدأت الأفكار تغوص فى تأمّلات لا حد لها.

سبق أن قلت إن الراهب السالف الذكر من جماعة الدومينيكان، وهو الآن يعظ العامة مستجيبا لأمر الجماعة بقلب متحمس، على الرغم من أننا ننتمى لنفس الجماعة، فإنه كان بينى وبينه اختلاف واضح، وهو أنى بوصفى راهبا عالما يتم إعفائى من التزامات دينية عدة مثل إلقاء الوعظ أو جمع التبرعات.

أنا دائما ما أحس بنوع من الشك تجاه أعضاء جماعة الدومينيكان العاديين، وهو ليس شكا يعتمد على الشائعات المنتشرة بين الناس التى يُهمس بها فى الخفاء عادة على شكل حكايات فكاهية مرحة، من المؤكد أننا نسمع كثيرا من بعض النساء فى بعض القرى قصصا من قبيل أن رهبان جماعة الدومينيكان حصلوا على تبرعات غير لائقة، ولكن نفس الشىء يحدث من الجماعات الأخرى، بالنسبة لجماعة الفرنسيسكان أو جماعة أوغسطينوس، مثل هذه الحكايات ليست بالأمر النادر، ليس

فى نيتى الحديث عن ذلك، الذى يجب بالأحرى مناقشته، هو مثاليتهم الطفولية جدا عن الزهد والتقشف، فى الواقع أننى عندما كنت فى باريس، كثيرا ما تناقشت مع زملائى حول هذه القضية لكن فى كل مرة كنت أصاب بخيبة أمل، وذلك لأن أكثرهم كان لا يحمل إلا وعيا غامضا للغاية فيما يتعلق بإرشاد العامة إلى طريق الإيمان.

إن القديس فرانسيسكو كان أول من رفع شعار "اِتّباع المسيح الفقير" وبدأ فى العيش على طريقة الرسل الأوائل متبعا فى ذلك عدة آيات من الإنجيل، ويُحكى أن السبب المباشر لتوبته هو تجربته فى الاختلاط بمرضى الجذام بعد أسره فى الحرب، وهو ما يختلف تماما فى ظروفه عن القديس دومينيكوس الذى توجه إلى حياة الزهد والتقشف متبعا فى ذلك نصيحة ديداكس، واضعا فى ذهنه منذ البداية هداية الهراطقة عن طريق الوعظ بوصفه هدفا.

بالمناسبة، لقد كتبت الآن عن القديس فرانسيسكو وقلت «أول»، ولكن هذه الكلمة هى صحيحة فقط بالمقارنة مع القديس دومينيكوس؛ وذلك لأنه فى ذلك الوقت لم يكن القديس فرانسيسكو هو الوحيد الذى تحدث عن مثالية الزهد والتقشف.

كان أكثرهم من الهراطقة، إذا نظرنا فى التفاصيل سنجد أنه كانت توجد حركتان رئيستان فى ذلك الوقت، الأولى هى عقيدة الديانة المانوية متمركزة فى طائفة الكاثارية التطهيرية، والحركة الأخرى، هى العقيدة الفقيرة التى أولدتها تفاسير العامة البسيطة للإنجيل، وإذا بالغت فى القول فإن القديس فرانسيسكو فى بدايته لم يكن سوى شخص ظهر متأخرا فى خضم الحركة الثانية.

....، بالطبع لا يوجد هناك داعى للقول إنه ليس لدى أى نية إطلاقا أن أنفى أو أقلل من شأن الأعمال الجليلة التى قام بها القديس فرانسيسكو لأنى تحدثت بهذا الشكل على سبيل المثال، فالحقيقة أنه فى حين أن رجلا مثل والدس أدين بالهرطقة وتم حرمانه، ولكن من جهة أخرى يحصل خطاب القديس فرانسيسكو على موافقة البابا، وأنا لا أعتقد أن ذلك من قبيل الصدفة، كذلك أيضا لا أعتقد أبدا أن السبب هو أن بابا روما فى ذلك الوقت إينوسنت الثالث قد رأى ذلك الحلم المشهور، لم يكن الزمن هو الفارق الوحيد بين الاثنين، ويمكن أن نعرف بسهولة ذلك إذا أخذنا شيئا واحدا، وهو أن القديس فرانسيسكو لم يعد لا البابا ولا الكنيسة مطلقا.

- لنعود إلى موضوع الحديث، بدون أى ترتيب منى اشتبكت أفكارى مرة أخرى مع هرطقة المانوية، ليس لدى أى نية لأن أحكى بالتفصيل الممل عن هذه التعاليم البالغة الضحالة، ولكن فقط سأقول عنها ما يلى: أعنى، أنه فى ذلك الوقت، كان من طبّق بإخلاص مثالية الهراطقة فى الزهد والتقشف هم من يُطلق عليهم طائفة "الكاملين" داخل الديانة المانوية.

ظللت أثناء سفرى أتأمل مفكرا فى السبب الذى جعل العامة من الناس ينزلقون إلى الهرطقة، فلم أجد هناك أى شك على أن أحد هذه الأسباب يكمن فى سقوط كنيستنا، وهذا أمر فى غاية الأهمية، بالتأكيد السبب الأكبر والأهم فى تفاقم الهرطقة هو التضليل الذى تحتويه هذه التعاليم، لا يوجد مجال لمناقشة أن

فقدان الأمل فى الحياة هو الذى يدفع بالناس إلى هذه التعاليم التى تقول: إن هذا العالم شر صنعه إله أحمق، ولكن فى نفس الوقت إن ما جعل الناس يتوجهوا إلى الهرطقة هو إحساسهم بالتعاطف العميق مع مشاعر هؤلاء "الكاملين"؛ لأن الناس ببساطة وعفوية يملكون احتراما وتكبيرا تجاه تعففهم وزهدهم.

لقد ذكرت منذ قليل أنه يمكن تقسيم حركات الهرطقة فى ذلك الوقت إلى تيارين رئيسين، وبإضافة تيار الإيمان الصحيح، يصبح مجموع العقائد الموجودة ثلاث عقائد، لكن الناس، الموجهة لهم هذه العقائد، يختارون حسب الأشخاص الذين يبشرون بالعقيدة وليس حسب تعاليم العقيدة ذاتها، الجماهير التى أصابها التعب والإرهاق تنظر إلى العقائد الثلاثة بمساواة، وتتبع الشخص الأكثر تحجيما لغرائزه، سواء كان من طائفة "الكاملين" المانوية أو ربما كان أحد المؤمنين الفقراء فى مدينة ليون، على كل الأحوال، أول من تم البُعد عنهم هم أساقفتنا الساقطون.

كان القديس فرانسيسكو، وعلى الأرجح بشكل أكيد القديس دومينيكوس يدركان ذلك جيدا، لم يكن هناك أى اختلاف بين النظرة التى نظر بها الناس إليهما وتلك النظرة التى وجهوها إلى طائفة "الكاملين" المانوية، ولكنهما استقبلا ذلك بصدر رحب، لقد ظل القديس دومينيكوس حتى وفاته يمارس التقشف المثالى عن طيب خاطر، محافظا على الطهارة بلا أى دنس، ومن جانب آخر ظل يُظهر انصياعا صلبا تجاه البابا، والقديس فرانسيسكو عمل بنفسه على الوصول إلى منتهى التقشف المثالى، لدرجة أنه قصر

الإعانات المعيشية التى كان "الكاملين" أنفسهم يحصلون عليها من الأتباع العاديين بنحو صارم على حالتين اثنتين فقط، هما توفير الملابس وحالات المرض، وظل يلبس ملابس تشبه سمة المتسولين، واستغنى عن السكن الدائم، وعمل باجتهاد من أجل قوت يومه، وكان يقوم بجمع التبرعات، ويتوجه إلى الناس بالوعظ والنصيحة، وكان أيضا يطوف البلاد مبلغا كلمات الإنجيل وهو يتحمل آلام الجروح المقدسة متتبعا خطوات السيد المسيح التى خطاها فى حياته، ببراءة وتلقائية أحس الناس تجاه حياة هذين الرجلين بتأثير قوى وعميق، ولكن للأسف أحس هؤلاء بنفس البراءة تجاه حياة السيد المسيح فى الكتاب المقدس.

يا لها من براءة ، يا له من فقر.

لم يفهم الناس فى النهاية معنى المسيح، بالنسبة لى، كان أصعب ما يمكن عليَّ تحمله هو اعتقاد الناس أن نزول الرب إلى هذه الأرض فقط لكى يقدم لهم نموذجا مثاليا، على أقصى تقدير، للحياة عليها، لقد أحب الناس المسيح الإنسان وأحبوا سيرته، ثم لم يروا فى المسيح إلا هيئته الإنسانية الرائعة فقط.

يقول القديس فرانسيسكو ما يلى:

- «يمكن لأى شخص رؤية ربنا يسوع المسيح فى هيئته البشرية، ولكن من لا يرى من خلال الروح طبيعته الإلهية، ومن لا يؤمن بأن المسيح بحق هو ابن الرب سوف يسقط فى الجحيم.»

وكان يجب على رهبان الدير جامعى التبرعات الاستمرار بعده فى توجيه نفس الكلام إلى العامة بلا كلل أو ملل.

فى النهاية، إذا كان لدينا نحن المسيحيين شيء واحد بالغ الأهمية فهو أن المسيح ذو طبيعة إلهية، ولا يوجد شيء أهم من ذلك، يا للعجب، كيف فقدنا مع الوقت هذه الحقيقة التى لا تقبل أى شك، مرة أخرى يجب علينا نحن الآن التأكيد على أهمية تقبل الرب للجسد، أهمية أن الرب القدير، تقبل الجسد، ووُلد من رحم امرأة وعاش ومات كإنسان فى هذا العالم الذى خلقه بنفسه.

يقول بولس: «فإنى أسعد بناموس الرب بحسب الإنسان الباطن، ولكنى أرى ناموسا آخر فى أعضائى يحارب ناموسا قلبيا، ويجعلنى أسيرا لناموس الخطيئة الكائن فى أعضائي." ويقول أيضا: "أنا نفسى أخدم ناموس الرب بقلبى، ولكن بالجسد أخدم ناموس الخطيئة.»

حقا، إن إيمان بولس حقيقة خالدة لا شك فيها، ولكن ورغم ذلك هناك بالتأكيد سبب وجيه جدا يوجب علينا أن نحب هذا العالم وهذا الجسد الذى مصيره الموت.

أعنى، أن الرب هو الذى خلق هذا العالم، ليس هذا فقط بل قد تقبل الرب هذا الجسد.

من الأفضل أن نفكر، إذا كان هذا العالم يستحق الكراهية حقا، فلماذا أخذ الرب ذاته، الرب الذى يسمو فوق كل شيء، نفس طبيعتنا نحن المخلوقين الضعفاء؟ لماذا كان عليه أن يعيش زمنا مع مخلوقاته فى نفس العالم؟ لماذا كان عليه أن يتنزل فى جسد فانى وأن يموت بشكل فعلى على هيئة إنسان محدد؟

لا يجب علينا أن نحقد على العالم تحت أى سبب من الأسباب؛ لأنه يفترض أنه فى اللحظة التى لمس الرب فيها العالم، مرة أخرى بعد الخلق، حصل العالم على قيمة عظيمة جدا، إذا أخذنا شيئا واحدا فقط وهو أن الرب قد تنزل بنفسه وعاش فيه فقط بسبب هذه الرحمة العظيمة، يجب علينا أن نواصل حبنا لهذا العالم.

يقول بولس: «أرسل الرب ابنه فى شبه جسد الخطيئة، ومن أجل الخطيئة أدان الجسد.» حذار من الخطأ فى القراءة، أن الذى عُلّق على الصليب لم يكن مجرد جسد إنسان، الذى كان على الصليب هو المسيح بكامله الرب والإنسان.

... لهذا نحن نعانى؛ لأننا كمسيحيين من ناحية نؤدى مهمتنا الروحية التى هدانا إليها الرب ومن ناحية أخرى لا نقدر أن ننكر حياتنا الجسدية، ولكن هذه معاناة رائعة متلألئة مُنحت لنا نحن فقط، فى الواقع أغلب سخطى على معظم أفراد جماعة الدومينيكان يكون فى هذه الجزئية، فهم دون حتى أن يعرفوا هذه المعاناة، يتكلمون عن الزهد والتقشف ويُوصون بتطبيقهما فى الواقع، ثم يحاولون بعد ذلك هداية الناس عن طريق انبهارهم بشخصهم مباشرة وليس بتعاليم الدين.

وأنا أعرف أشخاصا كثيرين اهتدوا على يد هؤلاء، ويعيشون معيشة تشاؤمية رافضة للحياة، وكأنهم أتباع للديانة المانوية الشاذة والغريبة.

وليس هناك مبالغة فى القول إن ما يفعله هؤلاء من زهد وتقشف ما هو إلا حقدا فى أغلبه على هذا العالم وعلى هذا الجسد، ولكن ما هو المعنى من جعل المؤمنين بهذه التعاليم

الساذجة التى تجعل من العالم شرا كاملا يجب رفضه، يتسابقون بلا داعى فى درجات الفقر؟ ربما يساعد هذا فى طرد الهرطقة ويجعل الناس تهتدى بالفعل، ولكن نتيجة لذلك، ألم تصبح تعاليم الرب، التى ينبغى الإيمان بها ضعيفة مشوهة بلا ملامح، وفقدت فعلا معناها العميق، هل سيتم إيقاظ الناس من هذه الغفلة إلى الإيمان الصحيح؟ ربما يمكن ذلك، ولكن المشكلة فقط إننى لا أثق بهذه الأمنية المتفائلة، لا ينبغى أن يكون الزهد أو التقشف أحد وسائل نشر الدين، إنه يمثل معنى لنا فقط فى سبيل الوصول إلى غايتنا الأساسية كتلاميذ للمسيح الواحد، لا يمكن القول إن القديس دومينيكوس كان غافلا عن هذه الحقيقة رغم قولنا إنه تعلّم ذلك كوسيلة من الهراطقة، وقبل أى شيء، من أجل تحقيق وتطبيق حياة الزهد، لابد من التذكر دائما تقبّل المسيح للجسد، التأكد من معنى وهدف ذلك، أنه يجب حب هذا العالم، هذا العالم المادى الجسدى.

... لا أدرى كم من وقت مضى وأنا غارق فى هذه التأملات، ربما كانت فترة أطول ممن ينبغى لمجرد انتظار الكاهن، لكن رغم ذلك فأعتقد أنه لم يمض وقت طويل جدا.

عندما انتبهت إلى نفسى وجدتنى فاتحا عيناى، ناظرا إلى الصليب الظاهر المُعلق فوق المذبح.

وخلف الصليب تتدفق أشعة صافية من خلال زجاج ملون بألوان متعددة.

أخيرا ظهر الشمّاس، وقادنى إلى خارج القاعة.

أثناء مرافقته لى قال الشمّاس كلمتين أو ثلاث بشكل مبهم معبرا عن اعتذاره؛ لأنه غاب طويلاً، ولكنى لم أوجِّه لذلك انتباهى، وقتها الذى أثار انتباهى كانت رائحة النبيذ التى تنبعث من أكمام ثوبه، على الرغم من أنها كانت رائحة سُكّريّة فإنها كانت تحوى نوعا من العكارة غير المريحة التى تصل بشكل ما إلى أعماق أنفى النحيف، كانت رائحة مغموسة فى هواء ساخن طازج، تلف المكان محمولة مع الهواء الهادئ.

أثناء سيرى بجانبه اختلست النظر إلى وجهه، كان وجها صلدا يملؤه التهجم، ربما يزيد عمره عن عمرى بمقدار عشرين عاما، لا يبدو عليه الكبر بالمرة، ولكن بدأ الشيب بالفعل يخلط شعر رأسه بكمية كبيرة من الشعر الأبيض.

لفترة أخذت أتجاوب مع جهده ناظرا إلى هذا الوجه، ولكن مع الوقت أحسست بتفاهة ذلك، حولت نظرى عنه فتسربت منى بدون قصد تنهيدة أسى؛ لأننى أثناء استنشاقى لرائحة النبيذ التى لا تذبل المنطلقة منه، جاءنى إحساس أنه مع تظاهره بصورة الورع، يتسرب من وجهه انزعاج كبير بشكل متفاقم كالبرميل الردئ الصنع.

لما وصلنا إلى مسكن الرهبان فى عمق الصالة المقدسة، اصطدمنا مع ثلاث فتيات صغار السن خرجن من الداخل، جميعهن يلبسن رداءً أبيض طويلا، كان منظر انحراف طرف الرداء بفعل الهواء يشبه كتل الطمى التى يبعثرها الحصان الجامح فى ركله، كن يتبادلن بعض الكلمات همسا مع ابتسامات خفيفة واحمرار طفيف فى الوجه، يتدلى من الشعر الهفهاف الأشعث زينة صغيرة تأخذ شكل ورق اللبلاب، اضطرب الشماس، وعندما تحدث إليهن طالبا التحشم، تبادلت النساء اللاتى يختلفن تماما عن هذا المكان النظر بعضهن لبعض، ثم سكتن برهة أعقبنها بإطلاق الضحكات مرة أخرى، ثم ربّتت إحداهن على وجنة الشماس عند رحيلها من المكان، تلألأ جزئيا كتفها الظاهر من خلال فتحة الرداء الواسعة بفعل أشعة الشمس المتسربة فى المكان.

بعد أن دخلت الدير ثم إرشادى إلى الطابق الثانى، لم يستطع الشماس إخفاء اضطرابهِ، ولكننى فضّلت الصمت، وأنا أعتبر أن الحفاظ على الصمت المحترم عند التعامل مع أمثال هذا الرجل من حسناتى القليلة.

عند بلوغ نهاية درجات السلم، والوصول إلى واجهة حجرة داخلية، طلب الشماس الإذن من الخارج بالدخول وانتظر الإجابة، فُتح الباب، وظهر الكاهن بنفسه.

لم يتأكد الكاهن ولو للحظة من وجهى، وإنما أعطانا ظهره وسار باتجاه مقعد بجانب النافذة وهناك استدار لنا وجلس على المقعد، وبعد أن وضع مِرْفقه على المكتب رفع جفونه إلى أعلى ببطء، وبعدها وبعد تأخر طويل ارتفعت مقلة العين.

تقدمتُ إلى الأمام بعد أن حثّنى الشماس على فعل ذلك، فى عُجالة، أوضحت اسمى وشخصيتى وأخرجت الرسالة التى حملتها من أسقف مدينة ليون وسلمتها إلى الكاهن، أخذ الكاهن الرسالة بيده وهو ينظر إلى وجهى، مر بنظره على الرسالة ثم تأكد من الخلف بنظرة خاطفة، ثم رفع بصره إلى وجهى مرة أخرى، الكاهن الجالس على المقعد رفع بالتأكيد بصره إليّ، ولكن إذا كتبت أنه خفض بصره إليّ لربما كان التعبير أصح؛ لأن نظرة الكاهن الموجهة لى هى نفسها النظرة التى نظر بها إلى خلفية الرسالة التى يبدو أنه يشك فيها، بدون أى اختلاف بين النظرتين،

بعد فترة من بدء الكاهن قراءة الرسالة، تولّد متسع فى الغرفة للتنفيس عن شعورى.

وجّهت نظرى أولا إلى عمق المكان.

كانت النافذة المفتوحة خلف الكاهن تتجه ناحية الغرب متلألئة مع أشعة الشمس، كانت النافذة صغيرة ويدخل من خلالها شعاع يتوقف كالماء الدافئ فى إبريق، يبدو أن ظل الجبل لا يصل إلى الحجرة فى هذا الوقت من اليوم، تتسرب باتجاهنا ظلال صغيرة للأشياء الموجودة فى الغرفة، وكأنها حمم بركانية تجمدت من البرودة.

هناك على جانبى النافذة ظلام خفيف، ويوجد على اليمين قارورة نبيذ قديمة، وعلى اليسار صندوق مربع، حُفِرت على الوجه الأمامى للقارورة حفر صغيرة تم ملؤها بعشوائية شديدة بقطع خشبية منقارية الشكل مائلة.

ويُرى أسفل الحفر الصغيرة بقعة بحجم كف اليد، فوق اللون البُنى الذى بَهت بفعل تراكم السنين، تظهر بقايا نبيذ مثل دم متقيح ساح قبل لحظة ولم يتوقف تدفقه تماما مثل الجرح الذى نُزعت قشرته قبل أن يتم شفاؤه، ولقد قادنى هذا فى النهاية لأنتبه إلى رائحة النبيذ التى كانت تملأ الغرفة وقتها، كانت هى الرائحة ذاتها التى تنبعث من أكمام رداء الشماس.

فجأة وكأن ملكاتى استيقظت، بدأت أكتشف آثار الحياة الساقطة التى يحياها الكاهن والتى بدأت تظهر لى بتفاصيلها.

قريب من آنية النبيذ، يوجد رف خشبى يتراكم عليه الغبار والعفن الأخضر، فوق الرف علبة من الجلد منقوش عليها أشكال تشبه جلد ثعبان ملقاة بشكل عشوائى وبالطبع كان يتساقط منها النبيذ، كان الجلد الممتلئ بالبقع والمصقول من جراء لمس الأيادى، يبث شعاعا خافتا مثل الرصاص، وبجوار ذلك توجد سلة طعام مغطاة بقماش، استطعت رؤية جبن من خلال ثقوب السلة، رأيت أيضا فاكهة، كالتفاح والبرقوق، استطعت رؤية عين جمل وبندق، رأيت علبة معبئة باللبن الرائب، واستطعت رؤية عسل نحل، ....، كان كل هذا طعاما تم التوقف عن تناوله من لحظات، لم أستطع رؤية ما يوجد خارج السلة لوجود ظل يمنع الرؤية، بالتأكيد الصندوق المربع المقفول يمتلئ بالطبع بأشياء أكثر، بالمناسبة، أنواع الطعام التى أعطيتها كمثال ربما لا تبدو بطبيعة الحال كنوع من الرفاهية الباذخة، ولكن على الأقل هذه الأطعمة لم ألحظها أبدا فى أى مكان آخر بالقرية حتى نهاية وجودى بها، وذلك لأنه

بسبب برد العام الماضى القارس، وفى مناطق متسعة من شمال جبال الألب ومنها هذا الإقليم، كان الطعام منعدما تماما، وكان حال الناس أنهم يلاقون الأمرين فى سبيل توفير غذائهم اليومى، بالطبع لا يفترض أن الكاهن لا يعلم بذلك، فمحاولة تغطيته بالقماش إما بسبب إحساس الكاهن ولو قليلا بالذنب، وإما بسبب الخوف من أن يأكله شخص آخر، أيا كان السبب فهاهنا كان الكاهن بمفرده يتمرغ فى ترف يتناول هذه الأطعمة.

كان فى المكان شيء آخر يفضح ذلك، قطعة خبز مُغمّسة لآخرها بالنبيذ ومشوية بالزيت متدحرجة فى ركن من أركان الأرضية، وكذلك قشر بيض متفتت يمتزج بتراب الغرفة، وعندما نظرت إلى اليسار وجدت سريرا عليه مرتبة وغطاء من ريش النعام ....

لم تعد هناك ضرورة لتتبع وكتابة باقى الأمثلة، فحتى من لم ينتبه إلى ذلك أصلا، تكفيه نظرة واحدة إلى جفون الكاهن الحمراء المنتفخة وإلى لحيته التى نبتت مشعثة وإلى فكه الملفوف باللحم الزائد؛ لكى نعرف على وجه التقريب الوضع.

- حسنًا، بعد أن قرأ الكاهن الرسالة، رماها إلى جواره ثم سألنى:

- «قلت: إن اسمك نيقولا، ...، هل أنت رفيق جاك؟»

- «جاك ...، ؟».

- «نعم، جاك ميكائيليس، عضو جماعة الدومينيكان مثلك، أتكلم عن جاك هذا، الشخص الذى ينعق بالخارج منذ صباح اليوم.»

أخيرا فهمت كلام الكاهن ثم أجبت:

- «لا، لا أعرف ذلك الرجل، كما لا أعرف المكتوب فى الرسالة، لكننى على أى حـال، وصلت هذه القـرية اليـوم لأول مـرة، وليس هدفى وعظ الناس، وليس فى نيتى جمع التبرعات.»

وضع الكاهن مرفقه على المكتب بشيء من العظمة المصطنعة ونظر لى نظرة غير المبالى بى قائلا:

- «على ذكر ذلك، فما قلته مكتوب فى الرسالة، حسنا لا بأس، إذا كنت تريد مقابلة الساحر العجوز فهو يسكن شرقى القرية، ويمكنك أن تذهب لمقابلته كما تحب، لا داعى لأن تكترث بى، ثم الرسالة سأقبلها على أى حال، ولكنها ليست مرسلة باسمى، إنها مرسلة باسم الكاهن الذى كان قبلى فى الوظيفة، فأنا اسمى يوستاس، وقد أتيت إلى هذه القرية منذ سبع سنوات وسمعت أن الكاهن الذى كان قبلى قد مات.»

ظللت قليلاً مأخوذا وأنا أسمع كلام الكاهن، بعدها لم أستطع أن أمنع شعورا تولد لدى بالاشمئزاز، لكن ذلك كان اشمئزازا عاديا تماما، مثلما كان شرح الكاهن شرحا روتينيا، فإننى كذلك لم أجد إلا اشمئزازا مألوفا، وفى ذات الوقت اتضح لى الغموض فى الاختلاف الشاسع بين الصورة التى رسمها لى أسقف ليون لهذا الكاهن عما وجدته عليه بعد مقابلته فعليا.

وعندما وجدنى الكاهن واقفا فى صمت دائم قال منفعلا وهو يزحف بعينيه السكارى فوق المكتب:

- «حسنا اذهب إذا لم يكن هناك شيء آخر، فأنا رغم ما يبدو، منشغل للغاية.»

غادرت الغرفة بعد أن قلت كلمات استئذان بسيطة.

وسمعته من خلف الباب يهمس قائلا «هه، .... راهب متسول.» ...

يَقسِم نهر صغير القرية إلى جزأين، وهو مجرى ضيق من فرع واحد ينبع فى داخل الجبل ويجرى فى اتجاه جنوب شرق القرية؛ ليصل مباشرة إلى سهل فى اتجاه شمال غرب القرية، وعندما أقول يصل بالطبع ليس معناه انتهاءه فى مكان ما ولكنه يتحد مع عدة أنهار مشابهة وفى النهاية يتحد فى نهر الرون؛ وفى الواقع أنه أثناء رحلتى أخذت من هذه الأنهار علامات طريق أكثر من مرة.

يوجد نُزل القرية فى الجهة المقابلة للكنيسة من النهر، هكذا دلّنى الشماس المذكور، بعد أن أخذت بعض التعليمات من الشماس، وضعت أمتعة السفر فى النُزل لفترة، على الرغم من وصفى له بالنزل، فإنه يبدو أنه لا أحد يستخدمه غالبا فى الوضع العادى، حيث إن القرية صغيرة تقع فى أطراف نائية وبعيدة عن الطرق الرئيسة، الطابق الأول عبارة عن حانة يتجمّع فيها أبناء القرية، ويوجد الحمام أيضا فى هذا الطابق، والطابق الثانى يوجد به ثلاث غرف فقط، الغرفة التى أُعطيت لى هى إحدى غرف هذا الطابق والأخرى هى لصاحب النزل والأخيرة تستخدم كمخزن.

أثناء رحلتى، حدث مرات عديدة أن سكنت نزلا لا يتناسب مع كونى راهبا متسولا، ولذلك فإن من أظهر ترددا كان فى الواقع مالك النزل نفسه، وهذا شيء طبيعى جدا، فأهالى القرية يتجمعون بعد انتهاء عملهم فى الحقول، فى هذا المكان لإزالة ما لحقهم من تعب دون أخذ اعتبار لأحد، ووجود راهب شىء لا يتناسب مع الوضع، بالطبع لا داعى للحديث عن الحمام أيضا، فى مثل هذا النزل عدم استقبالى بشكل جيد، هو أمر عادى جدا، ولكن الشيء الذى أصابنى بالسعادة هو أن مالك النزل هذا كان شخصا يحمل قدرا كبيرا من الإيمان، خاصة أنه كان واحدا من الذين يحترمون جاك ميكائيليس جدا، ولقد فرح مالك النزل؛ لأننا عضوان فى نفس جماعة الدومينيكان؛ ولذا تخلى عن تردده وقرر أن يسمح لى بالإقامة هنا، وبذلك تولد بينى وبين جاك علاقة ما مبكرة حتى قبل أن نتبادل الحديث معا.

فى الصباح التالى، وبعد انتهائى من الصلاة، فى منتصف السلم الصغير الذى يؤدى إلى الطابق الثانى اختلت قدماى وأصبح على أن أسلم جسدى للحائط، كانت الرحلة من ليون إلى هنا أصعب مما كنت أتخيل، علاوة على ذلك، إن شائعة وجود قطاع الطرق فى هذا الطريق جعلنى أسرع السير ولو بجهد جهيد.

على الرغم منى قضيت طوال ذلك اليوم نائما فى الفراش.

وفى صباح اليوم التالى، كما توقعت لم تتحسن حالتى، ولكننى قررت الخروج من النزل بعد الظهر تقريبا للتجول داخل القرية، سبب المرض فى الغالب لا يزيد عن كونه الإجهاد، ورغم ذلك فقد أخذت قرارى هذا رغم تكلفى بعض العناء، وكان هناك سببان

لذلك، الأول لأن مالك النزل بعد أن عرف ما بى زاد حضوره للاطمئنان على بين الحين والآخر، بشكل جعلنى امتعض، لم يكن سلوك المالك متسرعا كمن جاءه ضيف على غير توقع، ولكن بشكل ما كان كمن يعتنى بالمريض؛ لكى يرضى غروره الذاتى، وهو ما جعلنى أشعر باستياء شديد، والسبب الثانى هو أن الرقاد مريضا فى أثناء الترحال يسبب القلق وعدم الأمان، إنه نوع من العصبية التى لم أتحرر منها أبدا حتى نهاية الرحلة، إنها ببساطة العصبية التى تأتى من وجوب قولى ماذا أقصد، هل يا تُرى يحمل الإنسان ما قلته هنا من عصبية زائدة عما يكون عليه فى العادى، عندما يوجد لديه هدف ما يسعى لتحقيقه؟ ولكن هذه العصبية أثناء السفر أكثر حدة، ربما هذا ليس له علاقة مباشرة بالهدف إنما هو قلق يصاحب الترحال بحد ذاته ولكنه فى وقت ما يرتبط بشعور الخطر من عدم تحقيق هذا الهدف ويتفاقم الاثنان معًا.

على أى حال لم أستطع تحمل الرقاد فوق الفراش أكثر من ذلك، فتركت النزل بعد أن أنهيت غداءً مبكرا عن موعده قليلا، وبدأت فى التجول داخل القرية من دون تحديد هدف ما أصل إليه، كنت لا زلت أحس بدوار فى رأسى، فلم يكن فى نيتى زيارة ذلك الخيميائى، ولكنى كلما مشيت قليلا انشرحت نفسى وبعد فترة تولد لدى متسع؛ لكى أتأمل أحوال القرية.

كان أول ما أثار اهتمامى طبيعة الأرض، لقد ذكرت سلفا أن القرية يقسمها نهر صغير إلى نصفين، فى النصف الجنوبى الغربى تمتد الأرض على شكل نصف دائرة قطرها هو النهر ذاته، الكنيسة توجد فى هذا الجانب، النصف الآخر فى الجانب الشمالى الشرقى تأخذ الأرض شكل مثلث قائم الزاوية ناحية الشرق يمثل النهر وتره، ويوجد النزل فى هذا

الجانب، وبالتالى القرية بكاملها تأخذ شكل ودعة حلزونية بها شرخ مائل.

وحول القرية يوجد منحدر بسيط كما لو كان يأخذ شكلا دائريا، من الأصح أن نطلق عليه هضبة أكثر منه جبلا، كثير من الماشية تم إطلاقها للرعى هنا، وعلى جانب آخر، توجد قمة قائمة الزاوية تميل ناحية الشرق أكثر منها ناحية شمال الشرق وتحمى ظهرها غابة كثيفة، وفوق هذه القمة يوجد بيت مبنى من الأحجار، وعلى حد ما سمعت فيما بعد يبدو أن ذلك البيت هو بيت الكيميائى، وتقترب الغابة تجاه القرية بمحاذاة فرعين منها، وتقبع الغابة فى الخلف ناحية العمق وحتى نهاية الجبل الضخم المكون من الحجر الجيرى وتغطى الأرض بعناد واستمرارية، هذا الجبل هو أكثر الأشياء خطرا فى رحلة التجول داخل محيط القرية، تظهر فى بعض المناطق من سطح الجبل بقع بيضاء من أرض الجبل إذا نظرنا لها من بعيد، تبدو كما لو كانت قطعان ماشية.

هذه هى تقريبا طبيعة أرض القرية، وبمناسبة الكتابة عن ذلك أريد أن أضيف هنا شيئا آخر، شيئا اكتشفته أثناء تجوالى فى ذلك اليوم وحتى الآن لا زلت أتعجب منه بين الحين والآخر، شىء يخص الجسر المبنى على النهر فى القرية.

حتى الآن وأثناء كتابتى، كتبت بشكل عفوى نوعا ما كما لو أن طول النهر منتظم، ولكن إذا قلنا تحديدا، فإن ما كنت أقصده فى هذه الحالة هو طول النهر من مدخل الغابة فى جنوب شرق القرية إلى أن نصل إلى الكنيسة فى شمال غربها، فإننى عندما كتبت قطر دائرة وأيضا وتر المثلث القائم الزاوية، كنت بالضبط أتحدث عن نفس الطول.

يقع الجسر فى المنتصف منه تماما، ولا يوجد جسر آخر غيره فى القرية. صُنع الجسر من خشب مأخوذ من الغابة وليس من الأحجار،

ورغم قول نهر فهو لا يزيد عن مجرد مجرى ضيق جدا، لذلك فهناك عدة أماكن يمكن عندها عبوره بدون الحاجة إلى جسر، وبالفعل فأنا عند انتقالى من الكنيسة إلى النزل لم أستخدم الجسر، ولكن ذلك لأن فى مثل هذا الوقت من العام مستوى سطح الماء فى النهر منخفض ويساعد فى هذا كثيرا، لكن لا يمكن ذلك فى بدايات الربيع عندما يأتى الماء الناتج عن ذوبان الثلوج إلى النهر، علاوة على ذلك، أثناء العمل فى الحقول فإن ذلك غير عملى بدرجة كبيرة جدا، على حد ما رأيت، ما زالت بواقى نظام الحقول الثلاثية الجماعية موجود فى القرية، فبغض النظر عن المناجل والفؤوس، فإن المحاريث الضخمة وما شابه من أدوات زراعية لا يوجد وسيلة لتبادلها إلا العبور بها على الجسر.

بعد عودتى إلى النزل فى وقت الغروب سألت صاحب النزل عن هذه المسألة العجيبة، لكن هذا الرجل عميق الإيمان أجاب بأنه ليس هناك معنى معين لذلك ثم صمت، لقد تعمدت القول عميق الإيمان؛ لأنى عرفت فيما بعد من شخص آخر أسطورة وثنية مستقرة فى القرية ومرتبطة بالجسر.

لا أستطيع الكتابة بالتفصيل عن محتوى هذه الأسطورة هنا، الذى عرفته فقط هو أنه هناك من يقابل فوق الجسر من حين لآخر أشباحا للموتى، مثل هذه الأساطير هى من النوع الذى يكثر سماعه مرارًا، وتتعلق بالطرق التى على شكل صليب، إذا نظرنا إلى الجسر وكأنه امتداد للطريق البرى، واعتبرنا النهر طريقا مائيا، ربما يمكن أن يكوّن ذلك شكلا من أشكال الصلبان، ولكننى لم أقتنع بذلك، لا يوجد أصلا فى هذا النهر متسع يسمح بسير قارب واحد

صغير، وهذا التفسير لا يعطى إجابة شافية على التساؤل الأصلى الذى يقول لماذا لا يوجد غير جسر واحد على النهر؟

وأثناء فترة وجودى فى القرية أخذت أفكر فى هذه النقطة مرة وأخرى، والسبب الذى لم يجعل اهتمامى بهذا الموضوع يخف ولو لحظة هو اكتشافى عدة حقائق جديدة مع مرور الوقت منذ ذلك اليوم، مثلا أن هذا الجسر يوجد فى المنتصف تماما من طول النهر الذى ذكرته كما لو أنه تمت عملية قياس فائقة الجودة، وبالتالى، فإذا رسمنا دائرة يكون مركزها هو هذا الجسر، فمحيط الدائرة الناتج سيتطابق تماما مع محيط الجزء الجنوبى الغربى من القرية، وعندها سيكون الناتج على الجزء الشمال الشرقى مختبئ داخل الغابة، ولكن ستكون هناك نقطة وحيدة متصلة به، هى البيت الذى يسكنه الكيميائى، وفى نفس المجال توجد أيضا حقيقة أخرى، إذا نظرنا إلى الكنيسة من فوق الجسر ثم حولنا نظرنا كما هو حتى نصل إلى بيت الخيميائى سنجد أن قيمة الزاوية تقريبا أربعة أثلاث الزاوية القائمة؛ لذلك فالجسر مع بيت الخيميائى مع نهاية الخط الذى هو مدخل الغابة، يكوّنون قمم مثلث مستوى الأضلاع، ....

لم أعتقد أن هذه الحقائق لا تزيد عن كونها محصلة للعبة هندسية فقط، لا، بل الآن، حاليا لا أعتقد ذلك، لا أدرى إذا كان ذلك نتيجة عمل بشرى أو هو مجرد الصدفة، لكن بعد رؤية ما سأكتبه لاحقا، ليس أنا فقط ولكن القارئ أيضًا، سيلجأ إلى الإقرار بوجود معنى على نحو ما هنا لهذه الحقائق، هناك حقيقة وهى أننى أصبحت أعتقد بقوة فى وجود معنى ما هناك، بعد مرور فترة من الوقت وإعادة النظر بإمعان وهدوء أكثر مما كنت أعتقد ذلك

وقتها والقرية مضطربة، لكن من جهة أخرى، هذه التأملات كانت تشير إلى شيء واحد مؤكد، هو أن اهتمامى انتقل تدريجيا من الجسر نفسه إلى الاهتمام بعلاقة هذا الجسر مع بيت الكيميائى، هذه العلاقة بالطبع لا تزيد عن كونها واحدة من الاهتمامات التى لا تنتهى والمتعلقة بالجسر، ولكن انجذابى المتعمد إلى هذا الحد الفائق ليس عجيبًا، من أجل شرح السبب فى ذلك لا يوجد أفضل من قراءة ما سأحكيه فيما بعد.

حسنا، لكن ليس الاكتشافات العديدة الخاصة بطبيعة المكان هى ما جعلت نزهتى فى هذا اليوم تكون صعبة النسيان، ولكنه بسبب لقاء تم سأحكيه الآن.

بعد تجولى داخل القرية فى عدة اتجاهات تقدمت قدماى نحو النهر وقادتنى إلى مدخل القرية، ثم أدرت قدمى إلى الخلف، وبدأت السير عائدا إلى النزل.

كانت الشمس قد مالت بالفعل وتلألأت القرية فى حُمرة كما لو أنها تحترق، لم أكد أبدأ السير خطوات إلا وسمعت صوت أقدام خافت خلفى، حيث لم أتوقع وجود أحد، لم أهتم وواصلت السير خطوتين أو ثلاث، فإذا بى أسمع صوت الأقدام تقترب أكثر فى اتجاهى، أدرت رأسى أخيرًا، ونظرت تجاه الغابة، كانت الغابة مغطاة بشجر كثيف جدا ومختفية تماما داخل الظلام وسط هذا الظلام، وفى خلفية أصوات الطيور والحيوانات المريبة، يُسْمَع صوت حشرة الزيز يتردد بثقل غريب مختلف عما هو عليه فى المعتاد، ....

ثم ظهر رجل فى بداية الشيخوخة، يكاد بقية الظلام الساكن فى أن ينساب توا من وجهه الذى بدأ أخيرا تنصب عليه أشعة الضوء، وخلفهما تظهر مقلتان سوداوتان جافتان باردتان.

وجهت نظرى متحفزا إلى هذه الملامح، جبين رائع يظهر عدم انقطاع الحكمة والعلم عنه، حاجبان كأنهما جناحان مفرودان لنسر صنديد، أنف سامقة تحتقر الأعمال الروتينية.

تجاعيد عميقة منحوتة فى جذور جوانب الأنف، وكأنها تسيطر على الخدين الأيمن والأيسر، فم ضخم بارز منعقد بلا رهبة، ثم فى أسفله فك قصير عريض القاع، ....، جسم ضخم طويل له هيبة، حتى لو نظرنا فقط إلى طريقة السير فهى تدل فى مكان ما على الاعتداد بالنفس، الملابس فى مجملها بسيطة، اللون الأسود يغطى جميع الجسم.

إذا أخذنا أى جزء منه فسنجد له سمات متفردة متكبرة لا يمكن أن تحتويها شخصية الأفراد العاديين، ومع ذلك لا نلمح أى أثر للمذلة فيه، على العكس، يمتلئ بهيبة تبتلع المحيطين به، الجو الذى يلفه ويصعب اختراقه كما لو كان عباءة طويلة يلتحف بها بقوة وتصل حتى كاحل قدمه.

لقد تأثرت كثيرًا، وأحسست بنوع من القشعريرة تزحف على جلدى، وعندما أسترجع الماضى، فلم يسبق لى أن رأيت رجلا بهذه الهيئة المهيبة فى أى مكان أو زمان حتى الآن، لم يسبق لى مطلقا رؤية شخص، تظهر عليه بوضوح هذه العظمة الروحية الهائلة.

كنت على هذه الضفة من النهر الصغير الذى يتهادى بسلاسة وبلا توقف، وكان الرجل على الضفة الأخرى، بعد أن وقف ونظر إلى حالى، وكنت واقفا فاقدا وعيى على الأغلب، وألقى نظرة وكأنها نظرة احتقار، أدار ظهره ومضى متوجها إلى منزله.

مرت لحظات وعرفت فجأة من يكون هذا الرجل، أعنى أنه كان الخيميائى.

اليوم التالى استيقظت فى الصباح الباكر، وأنا مازلت فى حالة نشوة، وحالتى الصحية جيدة جدا، أعدتُ التفكير أثناء ترتيب سريرى الذى مازال ساخنًا، فى لقاء البارحة، ....

مثل ما حدث عندما قابلت يوستاس، كانت الصورة التى رسمتها الخيميائى من خلال كلمات أسقف ليون تختلف بشدة عن الأصل، لم يكن ذلك بالشكل الذى حدث مع يوستاس وهو فقدان الأمل، ولكنه على العكس جعلنى أشعر بقليل من التفاؤل، وأحسسنى ذلك ببعض الطمأنينة، والسبب هو رغم مجيئى إلى القرية بالفعل، إلا أننى وبصراحة كنت لا أزال أحمل بعض الشك فى كلام الأسقف، بالطبع لقاء البارحة لم يزل شكوكى كلها، لكنى كنت أرغم نفسى على الوثوق بكلمات الأسقف، فأصبحت الآن أثق بها تلقائياً دون أى عناء.

لكن فى نفس الوقت الذى فكرت فيه هكذا، أحسست بشيء ولّد لدى الحزن فجأة؛ ذلك لأنى تذكرت حديثا دار بينى وبين مالك النزل ليلة أمس.

ما حدث كان كما يلى:

عند عودتى إلى النزل فى وقت الغروب، أخبرت المالك بما رأيت، فكان جوابه أن هذا الرجل بالتأكيد هو الخيميائى، هنا عرفت لأول مرة أن اسمه بيير ديوفاى، ومن العجيب أن أسقف ليون وكاهن هذه القرية لم يفصحا لى عن اسمه، ثم سألت مالك النزل عن أخلاق الرجل وعن جدوى زيارته من عدمها.

قال مجيبا على الأسئلة السابقة:

- «هل تفضلت وقلت الذهاب لمقابلة هذا الرجل؟ من فضلك لا تفعل ذلك، لو ذهبت فالرفض والطرد هو مصيرك، إن شهرة هذا الرجل المخبول بكراهيته التعامل مع الناس تصل إلى الحد أنه لا يوجد من لا يعرف ذلك، إننى أعيش فى هذه القرية منذ أمد بعيد وإلى الآن لم أتبادل معه الحديث ولو بكلمة واحدة فقط، كلا بل على فرض أننى وجهت إليه الكلام لن يأتينى رد، لن أقول شيئا شريرًا، من فضلك امتنع عن ذلك، أيها السيد الفاضل نيقولا، لا يوجد ما يدعوك إلى الذهاب حثيثًا، ثم تلاقى ما يعكر مشاعرك.»

أصابنى هذا الكلام بالحيرة.

- «لكنى جئت إلى هذه القرية فقط لمقابلة ذلك الرجل، ....»

عندما قلت ذلك، يبدو أنه لم يكن يتوقع أبدا كلماتى تلك، فصمت المالك لبعض الوقت، ووقف ينظر إلى وجهى، ثم أخيرا فتح فمه وسألنى:

- «حتى أنت أيها السيد الفاضل نيقولا، تريد أن تعلم تلك الصنعة السحرية؟»

- «نعم، إذا كان ذلك فى الإمكان.»

- « ...، هل الأمر كذلك؟»

بدا الاحتقار يختلط بملامح وجه مالك النزل.

- «إذا كان الأمر كذلك، فمن الأفضل أكثر وأكثر الامتناع عن ذلك، بعض شباب القرية الذين طغت عليهم شهوة المال أرادوا تعلم سر الصنعة، وترددوا على منزل بيير، ولكنه طردهم جميعا من على الباب، ... إنه لا يحاول تعليم أحد، إنه ... أعنى لأن الأمر كذلك، السيد الفاضل نيقولا أيضا ...، رغم ذلك لقد ظننت أنك تريد الذهاب إليه؛ لكى تعظه وتسدى النصح إليه، ....»

أصابت هذه الكلمات كبريائى بجرح ما، ثم عندها بدأت أخيرا أتفهم بشكل ما، كيف يفكر مالك النزل، يبدو أن المالك كان يعتقد أن زيارتى لبيير سببها لهفتى إلى المال، لكن كان ذلك بالتأكيد تفكير ذاتى خاص به ليس له مسببات، حاولت أن أصحح له سوء فهمه، لكنى عانيت كثيرا فى إيجاد الكلمات التى تمكننى من ذلك.

إن هدفى من زيارة بيير هو الاجتهاد فى البحث العلمى من خلال الصنعة، وليس فى تفكيرى على الإطلاق الرغبة فى الحصول على الذهب، ولقد أصابتنى الحيرة الآن، فى كيف ومن أين أبدأ؛ لكى أشرح هذا لمالك النزل، وقعت فى حيرة، كيف أشرح لهذا

الرجل الذى لا يزيد عن كونه مالكا لنزل فى قرية نائية، أن صنعة الخيمياء ليست سحرا شيطانيا يجب القضاء عليها وطردها، وإنما من الممكن أن تكون أحد علوم الطبيعة.

لقد فكرت أولا أن أسرد له فى ترتيب منظم و جيد قضية الفلسفة الوثنية التى كانت السبب الأصلى الذى ساقنى إلى هذه الرحلة، لكن كانت هناك حاجة إلى استخدام كلمات كثيرة جدا، بالإضافة أن فهمه لها موضع شك، لذلك أقلعت عن ذلك فورًا.

بعد ذلك فكرت فى محاولة إفهامه عن طريق الشرح أن صنعة الخيمياء من وجهة نظر علم اللاهوت وفلسفة الأديان لا يمكن نفيها أو إنكارها تمامًا، ولكن هذا مستحيل؛ لأنه كما أتوقع يستلزم ذلك أيضا شروحات ضخمة، ولأن صاحب النزل ليس لديه أى معرفة تتعلق بعلم الطبيعة.

آخر ما فكرت فيه هو محاولة إقناع صاحب النزل عن طريق ذكر حقيقة أن مسيحيين عظام من أمثال ألبرتوس العظيم عملوا بالفعل أبحاث فى صنعة الخيمياء، وهذه الطريقة هى الأكثر بساطة، وهناك إمكانية لتحقيق النجاح فيها بشكل كبير، لكن إذا كان لابدَّ أن أشرح لصاحب النزل أولا من هو القديس ألبرتوس العظيم، فلن يكون فى وسعى تمنى نتيجة مرضية.

لم يكن أمامى إلا الصمت رغم تألمى لعدم الوصول إلى غرضى، مالك النزل اعتبر صمتى هذا ردا، وتركنى ذاهبا إلى عمله متعللا بالانشغال...

تنهدت وأنا أتذكر هذا الأمر وقد أصبح بلا معنى، وهو شىء عادى بالنسبة لى.

الوسائل العديدة التى فكرت فى استخدامها فى الشرح لا تعدو أن تكون مرت فى عقلى للحظات، وسبب كتابتى هنا لهذه التعبيرات التافهة وكأنها أشياء هامة، هو غضبى من عدم تقبل العامة لى فى العادة.

لم يكن كرهى للمعاناة هو السبب الوحيد لعدم الاستمرار فى إفهام العامة باستخدام كلمات إضافية عندما يتأزم موقفى فى الحوار، ولكن لاعتقادى أن الكمية الهائلة من الكلمات التى سأنفقها تبدو بلا طائل، اليأس فى داخلى يربط بسهولة شعور محاولة الفهم مع شعور الاستياء من عدمه، أنا لا أعتبر استخدام العديد من الكلمات من أجل المحافظة على شعورى بالرضا اليومى شيئا مريحًا، بالإضافة إلى أن جهل العوام يقطع أى أمل لدى فى إفهامهم، هذه هى الحقيقة التى تدعو الناس إلى القول أنى متكبر، لكن إن شئت القول فهذا التكبر ليس فى أننى وحدى فقط، وأقول ذلك لأنى أعتقد أن جهود شخص لديه علم عظيم يفوقنى بكثير لمحاولة إفهامى هو عمل ربما يبدو بلا معنى.

حسنًا، بالطبع رغبتى فى مقابلة بيير لم تتغير مطلقا، وانتظرت لما بعد الظهيرة ثم خرجت بمفردى من النزل؛ ودّعنى مالك النزل بنظرة يائسة، أما عنى فلم ينعدم قلقى تماما؛ لأن تحذير المالك المخلص وكذلك ما رأيته بالأمس، يدلان على أن ترحيب بيير بزيارتى مستبعد للغاية.

خرجت من النزل، ومشيت بمحاذاة الغابة قليلاً، فظهر من فوق الهضبة المرتفعة قليلا البيت المصنوع من الأحجار، هذا هو مسكن بيير ديوفاى، هذا المبنى الذى لا يعدو نادرا فى باريس، لكن فى هذه القرية باستثناء الكنيسة لا يوجد إلا بيتا أو اثنين مثله يعدون على أصابع اليد، جميعهم يأخذ شكلا بسيطا وهو واجهة من الحوائط الطينية وسقف مغطى بالقش، لم يتغير انطباعى عن يوم أمس أثناء تجوالى بالقرية، فقد جذبتنى هذه التلقائية والبساطة، لا يزحف على الحائط أى من أعواد اللبلاب، النوافذ صغيرة محفورة، اثنتان فقط واحدة فى الشمال وأخرى فى الجنوب، مفتوحتان بشكل ضئيل وكأنهما تتحاشيان أعين الناس، لا توجد أية زينة ظاهرة للعين، ولا تُرى أية حيوانات أو دواجن.

تم بناء المبنى بحيث يتجه ناحية الغرب تماما، يمتد من فتحة الباب الأمامى طريق مستقيم، لتصل إلى الحديقة وهنا فالطريق الوحيد الذى لا تنبت به الحشائش، وتبرز لأعلى بلون أبيض، وفى نهاية هذه الطريق يوجد باب خشبى، السياج الذى يلف محيط المنزل دون أى فراغات يكتمل هنا.

لم تكن فقط وحشة المكان هى السبب الذى جعلنى أتردد لفترة بسيطة جدا فى الدخول بعد أن وصلت إلى المنزل أخيرًا، لكن ما أوقف قدمايَّ فى هذا المكان هى رهبة الغابة الكئيبة التى تقترب من خلف المنزل، الأشجار الضخمة التى مدت فروع أوراقها فى السماء الزرقاء بدت فى عينى وقتها كأنها نيران متأججة.

وإذا حاولت الوصف، فهو مظهر ما من مظاهر اندفاع قوة تدميرية ضخمة، متكاملة، بل وإلهية، تجمّع هائل لا يتوقف من الأرواح المهيبة، لقد ظننت أننى أرى النيران الكبريتية الضخمة التى حولت سدوم وعمورة إلى رماد، كأننى أرى النيران الضخمة التى تحاول محو الرذيلة بالقصاص، الظلام الذى يسكن قاع الغابة كأنه الدخان الأسود الذى يخرج من جثث الموتى، الأطراف الكثيفة لفروع الأشجار كأنها آخر إشعاع نور مريب لخطايا الإنسان التى تم تطهيرها بالفعل؛ لتنطلق إلى السماء، ... هذا المنظر الذى ظهر أمام عينى أعطانى للحظات إحساسا كاذبًا، وكأننى قد حضرت بالفعل ذلك المشهد.

صدمة هذا المشهد الخيالى قادتنى إلى تفكير معين، لقد ارتبت فى تعاليمنا الدينية المتعلقة بوجود حقيقى للشر، فإذا كان الشر ببساطة هو مجرد تسمية مقابلة لغياب الخير، فلماذا يكون هناك ضرورة لقصاص لحظى، لا زمنى كهذا للتكفير عنه؛ لماذا لا يتم الانتظار؛ ليكتمل وجوده الأصلى الذى لابد أن يحصل عليه فى نهاية حركة طويلة، ... لقد أصبحت منعزلا، إذا لم يكن المخلوق قادرا على الوجود كشر فالمفترض أن ما يجعل هذه النيران باقية تحترق ليس فقط السقوط البشرى، المفروض أنه بسبب النظام الأصلى لهذا العالم الذى يحتوى على الكثير من الخير والشر، بل هو بسبب هذا العالم ذاته، لا، ليس هذا العالم بمفرده فقط، عظمة النيران التى أمام عينى تبتلع الاثنين معا العالم والزمن، تبتلعهما وهى تتألق داخل هذه الانحناءات وهذا الإشعاع المسبب للدوار، بنبوءة مأسوية للبعث وعلامات على بلوغ لحظى لهدف معين، البلوغ

إلى كمال العالم ثم البعث، ثم أنا فى خضم نيران هذه الخضرة، أحسست وكأنى أرى نفسى بذاتها من خلال الفتحات التى بين الأشجار...

تجربتى الغريبة هذه حدثت فى أقل من لحظة، كانت بالكامل مشاهدة فى طرفة عين، كانت رعشة رعب لحظية، عندما أفقت إلى نفسى ارتبت فى قوة مشاهد الذاكرة العجيبة وفى الأفكار التى جلبتها بعد ذلك، وهى أن الأشجار اليافعة الكثيفة فى قاع الغابة كأنها تحاول إيحائى أن ما رأيته توا من خيالات، ليس مجرد خيالات، ....، حقيقة، لقد كانت هذه التجربة إيحائية؛ لأننى بعد إعادة النظر، لم أستطع إزالة فكرة راودتنى بأن هذه الغابة الشمالية الشرقية قد امتلأت بالفعل بقوة ما روحية، قوة ما غريبة بعيدة كل البعد عن عالمنا هذا.

وأنا أنتظر بيير بعد أن قرعت الباب، انتابنى على العكس بعض السكينة تماما مثل الطمأنينة التى تأتى بعد كابوس مرعب.

بعد فترة سمعت صوتا خفيضا يسأل مِن الداخل عن الطارق؟ ذكرت اسمى، ثم بعد ذلك حكيت بإيجاز تفاصيل رحلتى من باريس حتى وصلت لذلك المكان، فتح بيير الباب ببطء، باستثناء المعطف كان يرتدى نفس رداء ليلة أمس الأسود الطويل، شعره مصفف إلى الخلف وعلى جبهته تلمع حبات قليلة من العرق.

لقد احترت قليلا بعد أن أصبحت أمامه، كما توقعت بدون أن يلفظ بكلمة أخذ بيير ديوفاى يتفحص وجهى بتمعن بعيون باردة وهو يقف على مدخل البيت، وحتى أجذب اهتمامه لى بأى شكل،

بدأت أتحدث عن أبحاثى عن توماس التى قمت بها فى باريس، وبعد أن فرغت منها تكلمت بعد ذلك عن أرسطو نفسه، وذكرت رأيى المشوش بخصوص نظريته فى علم الطبيعة، ظل بيير كما هو بدون أى تعبير يستمع فقط إليّ صامتًا، ثم عندما اختنقت كلماتى وتقلصت، بدا كأنه يفكر فى شيء ما ساقطا ببصره لأسفل ثم رفعه لأعلى، وأخيرا عاد للخلف ناحية عمق البيت، بعد أن ترددت لحظات، اعتبرت أن تركه للباب مفتوحًا، علامة على قبولى فدخلت البيت خلفه، فى هذه الغرفة المعتمة كان أول ما لفت نظرى هو ذلك الشيء الشهير، الذى لم أستطع أنا - طويلا وإلى الآن - أن أراه على الواقع، إنه ما يُسمّى «صانع الفلاسفة»، إنه تنّور الخيمياء، بعد ذلك وكعادتى دائمًا، بحثت عن مكتبة الكتب ونظرت إلى ما تحتويه من كتب.

تشغل مكتبة الكتب أغلب مساحة الحائط الشمالى، وتنقسم رأسيا إلى حوالى ستة أرفف مكدسة فيها الكتب دون أية فراغات، عددها هائل لا أستطيع أن أسجل أسماءها كلها هنا، ولكن إذا حاولت أن أذكر بعض الأمثلة فهى كالتالى:

مثلا كتب شروحات القديس توماس وألبرتوس العظيم لكتب أرسطو «الفيزيقا» و «الكون والفساد» و «كتاب ما بعد التحليل»، وترجمة كتاب بورفيريوس «مدخل إلى تصنيفات أرسطو» التى قام بها بويثيوس، وشروحات كتب أرسطو لابن رشد، وكتاب «مرايا الطبيعة» لكاتبه فينسنت دوبوفييه ... إلخ، وكذلك من جانب آخر ترجمة كالسيديوس لكتاب أفلاطون «طيماوس (المحورات)»،

بالإضافة إلى كتابى «المؤلَف العظيم» و «مرايا علم الخيمياء» لروجير بيكون، و «الكتاب المقدس للخيمياء» لراموند لول، وكتاب «شرح أسرار الرموز الهيروغليفية» لنيقولا فلاميل، و «كتاب أصول الكيمياء» الذى كتبه العالم العربى جابر بن حيان، وغير ذلك كتب «مجمل علم اللاهوت» و «شروحات علم الميتافيزيقا» من سلسلة مؤلفات القديس توماس، وكتاب «مختارات هرمس» الذى كان السبب الأصلى فى خروجى لرحلتى هذه، إلخ،....

من إلقاء نظرة سريعة على أرفف الكتب نفهم فى الحال أن مكتبة بيير جُمِعَت بدون أى تحزب أو انتقاء، أسماء الكتب السالفة الذكر مجرد عينة ذكرتها تاركا لنفسى العنان، فبغض النظر عن الأنواع النادرة والعجيبة من الكتب، فكثرة الكتب المتعلقة بأرسطو مقارنة بأفلاطون هو بسبب خصائص علم الخيمياء ذاته بالإضافة إلى عامل الزمن، بالطبع قبل قول مثل هذا التحليل، فوجود هذه الكمية من الكتب فى مثل هذا الطرف النائى من الأرياف، هذا الأمر ذاته يبعث على الدهشة والإعجاب، توجد أنواع أخرى كثيرة من الكتب المنسوخة والمخطوطات القديمة المكتوبة على جلود الخرفان والتى لا يُعرف لها عنوان، أثناء مشاهدة ذلك تذكرت التفاصيل التى جاءت بى إلى قرية بيير، لأنه مع العيش هنا من المستحيل بأى وسيلة كانت تجميع كل هذه الكتب.

حسنًا، إذا انتقلنا ببصرنا بعد أرفف المكتبة مستمرين بمحاذاة الحائط، نجد لوحة معلقة بعرض الحائط الشرقى، والمرسوم فى اللوحة، حيوان خرافى أبيض اللون له قرن واحد، يتدلى عنقه

ويغوص في وسط بحيرة مليئة باللهب والدخان حتى منتصف ساقيه، يثني رجليه الأماميتين كما لو كان يحاول القيام أو على العكس يحاول الانبطاح، شكله وهو يخفض قرنه بميل يبدو جميلاً، ويبدو أيضا شجاعا وقويا فى نفس الوقت.

أسفل إطار اللوحة يوجد مكتب، ويوجد شمعدان واحد ذو فرعين بمحاذاة الحائط، وعدد من الشمعات وأمامها اثنان أو ثلاث مخطوطات قديمة ومرصوصة رصا، بعضها فوق بعض وهى على حالها مفتوحة، الشمع ذو لون أبيض رائق، ليس كمثل الذى نستخدمه فى حياتنا اليومية الذى صنع من مجمدات شحوم الحيوانات ولكنه يبدو أنه مصنوع من الشمع الأصلى الطبيعى.

بعد ذلك حولت بصرى نحو الحائط الجنوبى، أعلى النافذة هناك صليب معلق، وأسفلها يوجد أرفف خشبية مرصوصة فيها بعناية قنانٍ عديدة مكتوب عليها أسماء عقاقير طبية، القنانى كلها مصنوعة من الزجاج، منها ما هو دائرى القاع على شكل أسطوانى، ومنها ما هو على شكل مثلث هرمى، ومنها ما هو على شكل مخروطى ...، إلخ، شذوذها الفردى يتحول مع تجمعها إلى سكون فى هيئة هادئة تحت جمال ساحر.

من النافذة يتسلل شعاع خفيف من الضوء.

وقتها تذكرت فجأة صمت الأحجار، إذا كانت هذه العقاقير تلد حجر الحكماء الشهير، فربما هذا الهدوء العميق هو صمت الأحجار قبل اتحادها وتجمدها، إنه صمت الأحجار ذو الحكمة

القوية الذى يرفض العالم الخارجى تمامًا، ثم يظل منطويا على نفسه دائمًا، ليتشبع بشكل مستمر لا نهائى، والعقاقير الآن لا تزال غير قادرة على الاتحاد، وفى حين تلتحف هيئتها الضعيفة اللينة، تمتلئ فقط بهذا الصمت.

لكن لم يكن هذا الأمر فى العقاقير لوحدها فقط، كل ما هو موجود فى هذه الغرفة يلفه ذات الصمت، الكتب، اللوحة، اللهب، الهواء، أدوات التبخير، تنُّور الكيمياء وغيرها من أنواع الأدوات المريبة، كلها مثل هذه العقاقير تتحد لتنتج أحجارًا، وتكوّن كتلة واحدة فى داخل الصمت ذاته، هذا الهدوء الصلب المتدفق بشدة هو فى أصله صمت الأحجار الواسع.

وبيير كان مركز وجود هذا الصمت غير الناضج.

وبينما كنت بعد دخولى إلى الغرفة مشدودا دون وعى إلى جَوّها، كان بيير ديوفاى بجوارى وقد عاد فى وقت ما إلى عمله، لم أنتبه لذلك، ولكن بعد التفكير جيدا، تذكرت أننى فى البداية عندما رأيت تنّور الخيمياء، رأيت بيير بالفعل بجانبه، ومررت عليه دون التنبه له تقريبًا، لا، لم يكن عدم تنبه، بل كنت أرى بيير ولكن لم أعه بصفته كشخص؛ قولى هذا غريب بعض الشيء، ولكن بدا لى بيير وكأنه جزء من تنّور الخيمياء.

كان بيير ديوفاى يجلس على المقعد منحنيا قليلا إلى الأمام، يراقب التنّور متأملا إياه، ولا يبدو عليه أى بادرة للتدخل فيه بيديه، تتراقص الظلال الناتجة عن اللهب على وجهه، وفى بعض الأحيان

كانت تحفر ظلالا عميقةً وغريبةً على تجاعيد جفونه وجوانب أنفه، تعبيرات الوجه الأصلية لا تتغير بالمرة، ولكن فى تلك اللحظات فقط تبدو للعين تعبيرات أخرى على وجهه لم تر من قبل، اللهب يبتلع لحم الوجه ويتحد معه بشكل يصعب فصلهما، على الرغم من ذلك لا يوجد إحساس بالغرابة، وكأن اللهب لا يتسلط عليه من الخارج ولكنه يخرج من الداخل.

... الذى عرفته فيما بعد، أن بيير كان أثناء وجودى فى القرية، منهمكا بصنعة ما يسمى «البياض»، وهو المرحلة الثانية فى صنعة الخيمياء الكبرى بعد المرحلة الأولى التى تسمّى «السواد»، بعد الانتهاء من صنع البياض، يتم الانتقال إلى مرحلة «الحُمرة» التى لو تم النجاح فيها يمكن عندئذ الحصول على حجر الحكماء المطلوب، بالمناسبة فى العادة هناك مرحلة وسيطة بين البياض والحُمرة تسمّى «الصفار»، لكن بيير لم يكن يؤمن بذلك، فبخلاف موقفه تجاه النظرية التقليدية كبريت الزئبق التى يتمسك بها بشدة، إلا أن موقفه هنا يعبر عن احترامه للبرهنة قياسا على التجربة.

أثناء مشاهدة عمله لفترة تذكرت بلا وعى حينما توجهت مرة إلى ساعاتى المدينة فى طفولتى، كنت حينئذ كما أنا الآن منبهر أمام الآلات الدقيقة وأمام الحرفى الماهر المنهمك فى النظر إليها، كانت عقارب الساعة فى أيدى الرجل التى أصقلتها الخبرة تتقدم، ثم تتقهقر، تنفك فتقف، تُضم مرة أخرى فتتحرك، ...، كان ذلك بالنسبة لى قمة العجائب.

قد احتوتنى فى ذلك الوقت مشاعر احترام يصعب التعبير عنها، لم يكن ذلك الاحترام موجّه إلى مهارة الحرفى فقط فى التعامل مع

التـروس، فى مـخيلتى أنا الطفل، كنت أعـتقـد أن السـاعـة والزمن شيئا واحدًا، بمعنى أن ما فى يد الرجل هو الزمن بذاته.

هل مـثل هذه الذكـريات لا تكفـى للتـصـديق؟ ربمـا هـو كـذلك كـحـقـيـقـة، الشيء الذى رأيتـه بغض النظر عن مـدى صـحـتـه، فى النهـاية ربمـا يكون هناك اعـتـقـاد أن الانـطبـاع المـضـاف فى هذا المكان، قـد تمت إضـافـتـه من جـديد فى السنوات التـاليـة، فلم يزد الأمـر عن كونـه على الأغلب أننى كنت أشـاهد السـاعة ذات التـروس التى كانت نادرة فى ذلك الوقت باستـعجـاب وفضول يليـقـان بطفل؛ ولأن الحقيقة أن الإحساس بالغضب تـجاه معاكسات الزمن جاء بعد مرور وقت طويل من ذلك.

لكن على أى حـال، فمـن المؤكد أننى وقتـهـا أحسست تجاه بيير ذات الإحسـاس نفسـه تجاه السـاعـاتى الذى رأيت مظاهر سيطرته على الزمن وآمنت بها، كان مظهر بيير وهو يواجه تنّور الخيمياء، إذا شئنا القـول، كـان له ورع وصـرامـة طقـوسـيـة تـمـامـا مـثل الذى نحمله نحن عندما نقوم بعمل طقس التناول لجسد المسيح أثناء القداس، كانت هيئة بيير كأنه يلمس وجودا سامقا يفوق حياتنا العادية بنحو ما.

كـان ذلك بـالنسبـة لى عـجـيبـا؛ وذلك لأن شعور الإعـجـاب الذى أحـسست به تجاه بيير لم يكن سـببـه المبـاشـر يعـود إلى أن التنبؤ بالحصول على المادة المجهولة التى تسمى حجر الحكماء أصبح وشيكا، بل يعود سبب ما اكتشفته فى بيير من طبيعة خارقة، إلى هذا الفعل ذاته الذى ربما ينتهى إلى لا شىء.

لقد فكرت قليلاً، الفعل إذا لم يكن هناك هدف يتحقق من خلاله، فهذا الفعل ذاته لا معنى له افتراضا، دهشتى كانت أن ذلك الفعل الذى هو مجرد وسيلة، قد انفصل عن هدفه وأصبح يحمل قيمة جوهرية فى حد ذاته، نحن نسمع من وقت لآخر أن الخيميائى يهتم بصقل شخصيته مع إجرائه للصنعة، لن أطيل الشرح فى تفاصيل طريقة عمل ذلك بشكل محدد، لكنهم يؤمنون أن ذلك يتحقق فى أغلبه بالتوازى مع التقدم فى الصنعة، علم الخيمياء يعنى فى الأصل الحصول على حجر الحكماء، وبه يتم تحويل أى شىء إلى ذهب، لا يوجد أى شك فى أن هذا هو هدفه النهائى، لكن إذا كان العمل ذاته المنوط بذلك يبتعد عن الهدف الأصلى، ويمكن استخدامه كوسيلة للتهذيب، فحتى لو كان البحث عن الذهب مثلا لا يزيد عن كونه أحلام يقظة، أليس إنكار ذلك فى الحال يدعونا إلى تسميته تسرع شديد فى التفكير، بالطبع من المسلّم به أننى أقول ذلك وفى ذهنى أن يصمد علم الخيمياء أمام نقاش هل هو عمل من أعمال الهرطقة أم لا؟ وهذه هى القضية المطروحة للنقاش مستقبلاً، لكنى أشعر بالرغبة فى التفاؤل قليلا تجاه ذلك، لا أدرى كيف أشرح شعورى هذا، على الأقل، نظرة واحدة خاطفة على بيير الموجود أمام عينى الآن، تثبت لى أن ذلك تفاؤلا شرعيا تمامًا، إن هذا الأمر الذى يبدو لى واضحا جليا فى هيئة بيير، لا ينبع فقط من سماته الشخصية الذاتية، ولكنى أحس بشدة أنه يكتسب هذه الصفة لأول مرة من خلال الصنعة كفعل.

كنت واقفا أفكر فى ذلك وفى نفس الوقت ينتابنى من جانب آخر شعور بالحيرة لا أستطيع التعبير عنه، لم يتغير حالى فى عدم

معرفتى بالخيمياء بشكل تفصيلى كعلم من علوم الطبيعة، ورغم ذلك أحسست حقّا بقوة جذب شديدة وأساسية فى هذا العلم الوثنى الغامض نفتقدها تدريجيا فى عالمنا بشكل مؤكد، لا أعرف حتى الآن ماهية هذه القوة، ولكن لدى إحساسا إنى أستطيع بشكل ما أن أتفهم لماذا انْجَذَبَ شخص مثل ألبرتوس العظيم قديما إلى هذا العلم وغرق فى أبحاثه إلى أخمص قدميه ....

لا أذكر كم مضى من وقت بعد ذلك، فى النهاية غربت الشمس ونحن داخل هذه الغرفة المعتمة دون أن نتبادل ولو مجرد كلمة واحدة، بيير الذى ظل بجانب تنّور الخيمياء دون أن يفارقه، نظر إلى تلك اللحظة ببطء وهو يقول: عُد إلى هنا بعد خمسة أيام، ولم يزد عن ذلك، ثم أسلم جسده إلى المقعد وهو يحمل وجها يملاؤه الإعياء، ولقد وافقت على ذلك، ثم تقدمت ناحية الباب وألقيت نظرة خاطفة للوراء.

كانت نيران تنّور الخيمياء لا تزال تشتعل وحيدة داخل الغرفة التى أطبق عليها الصمت.

بعد تركى لمنزل بيير مباشرة، أوقفنى رجل للتحدث معي، إنه غيوم، كان غيوم رجلا متوسط العمر، يمتلك محلا للحدادة فى القرية، قصير القامة يحمل وجها شديد القبح علاوة على ذلك كان به عيب خلقى فى قدميه الاثنين، ويقال: إن عدم قدرته على العمل بالزراعة، واختياره الكسب عن طريق الحدادة سببه هذا العيب، أمسك غيوم بى بدون سابق معرفة، وسألنى بالتفصيل عن أسباب زيارتى لمنزل بيير، وبعد أن شرحت له السبب، تحول حاله فجأة وبدأ فى مدح صفات بيير، كانت كلمات المديح فادحة تماما حسب هواه، ولا توصل ما يريد قوله مطلقا ، وعلى العكس ربما بسببها بدأت أشك فى درجة احترامه لبيير.

ولفترة، ونحن فى هذا الوقت من الغروب - أصبح على الاستماع إلى حديث لا ينتهى من هذا الرجل الذى تملأ آثار الجروح وجهه، على حسب زعم غيوم فهو الوحيد فى القرية الذى يستطيع التردد على منزل بيير ويقوم بنفسه بتلبية كل طلباته كشراء الطعام وغيره، ثم أخذ يسب أهل القرية بكلمات نابية، وفى كل مرة ينظر إلىّ

طالبا موافقتى على ما يقول، ومن جانب آخر، قال: إن صنعة بيير حقيقية تماما بدون أى زيف، وفعليّا يقيم بيير عيشه حاليا على الذهب الذى استطاع الحصول عليه من علم الخيمياء.

كانت تطل لحظات خنوع يظهر أحيانا فى طريقة حديث غيوم من بين لحظات الصدق، وفى أغلب الأحيان لم يستطع بشكل كامل إخفاء محاولته تحييدي، صوته كما لو أنه جلد بقرة كان مشدودا فى عمق الحنجرة ثم خُرق، صوت مبحوح ذو صدى رديء، يمتزج مع صوت انسياب الجدول الرائق الجميل الذى يتدفق بجوارنا، ويزحف نحو الأذن ببطء مثل النفايات كثيرة التوقف.

شمس المغيب التى لم تبرح بعد عن حافة الجبل، أضاءت وجه غيوم، وأبرزت اللعاب الذى أصبح مثل رغوة دقيقة متوقفة على جانبى شفتيه المشقوقتين كما لو أنها تجمع من قمل احمر لونه وتضخّم بعد مصه للدماء.

حينئذ سمعت فجأة صوت امرأة يأتى من الخلف، كانت المرأة هى زوجة غيوم.

- «ألا تنتهى يا رجل؟ أما زلت تردد مرة أخرى الكلام عن هذا العجوز الذى يشبه الشيطان! ألم أقل لك: إن الاختلاط بهذا الرجل لن يكون نهايته خيرا ، كم مرة يجب إعادة كلامى لكى تفهم! ماذا لو عدت سريعا واعتنيت بجان؟!»

عند سماعه ذلك انتفض غيوم غاضبا كنار هبت فجأة، وأمطرها بالصياح:

- «اخرسى أيتها العاهرة، لا تكثرى من الحديث! ألا ترين سيادة

الراهب وهو فى ورطة؟ مـا عليكِ إلا أن تـغـربى عنا وتسـارعى فى إعداد الطعام!»

ثم بدا أنه قلق بشأنـى واعتذر لى بصوت لا يمكن التـمييـز بينه وبين حديثه إلى نفسه قائلاً:

- «يا لهـا من امـرأة حـمـقـاء، بالله كـيف أُحـسـن اختـيار كلمـات الاعتذار ....، تبا لها من امـرأة، عند عودتى لن أدع الأمر يمر هكذا، ....، آه لقد أصابتنى بعار لا مثيل له، ...، آه فى الواقع أنا أنوب عنها فى الاعتذار لك هكذا، هكذا .....»

نظرت بطرف عينى إلى غيوم الذى أحنى رأسه كثيرا، ثم ألقيت نظرة إلى الوراء مكان صدور الصوت.

لا زالت المـرأة واقفـة أمـام باب المنزل كمـا هـى، كـانت ضـخـمـة الجسم حسنة الامتلاء، شفتاها مفتوحتان ببلاهة كما لو كانت ثمرة فاكهة انقسمت من النضج الزائد.

عدلت بـلا تفكيـر اتجـاهـى إلى مـا كـان عليـه، ولكن فى منتـصف الطريق لفتَ شىء مـا انتبـاهـى، مـمـا حـثنى على النظر مـرة أخـرى ناحية المنزل.

كانت هنـاك شـجـرتـان كبيرتان تمتد فروعهما بجوار الدار، وبين هذه الفروع يوجد شيء ما يكرر بلا انقطاع حركات متوالية، وعندما دققت نظرى كان هذا الشيء عبارة عن صبى يلعب وحيدا على أرجوحة.

لقد سيطر على الرعب لبرهة بسبب ذلك، كـان الصبى يفتح فمه بكل طـاقتـه ويضـحك بدون صـوت، شـعـر رأسـه يتـراقص، وعـيناه مـفتوحـتـان بشـدة، والعـروق بارزة فى رقـبتـه، ولكن مع ذلك لا يظهـر

على وجهه سرور على الإطلاق، لا ليس مجرد السرور، لقد كان على الأرجح مجرد وجه ضاحك يبرز فجأة فى مكان ما يفصل بينه وبين الشعور الإنسانى فجوة غريبة، كأنه صورة قمر منعكس على سطح الماء يشع ويتلألأ فى نشوة غامرة.

يُأرجح الصبى الأرجوحة بلا انقطاع بإمالة جسمه بقوة هائلة حتى لتبدو أن أفرع الشجر الحاملة لها على وشك الانكسار، الجسم الذى أُطلق إلى الأمام يُشد عائدا إلى الخلف بلا معنى، كما لو كان سهما قد انطلق بعد شد قوسه، ثم يطلق الجسم مرة أخرى، لكن السهم لا يصل إلى هدفه مطلقا ، فى هذه اللحظة يُمسك بالتأكيد ثم يُشَد فيعاد مرة أخرى، ثم يُطلق من جديد، فيعود، فيُطلق.....

بعد تأملى ذلك لفترة لم أعد أحتمل النظر فحولت عينى عنه، مرة أخرى أرعبتنى فكرة مستحيلة، وهى ماذا لو استمرت هذه اللعبة إلى الأبد.

عندما عدلت وجهة جسمى كان غيوم واقفا قريبا منى جدا ، ثم قال وفمه يهتز:

- « ...، إنه أبكم، ....»

عندما عدت إلى النزل كان الكثيرون من أهالى القرية قد تجمّعوا بالفعل فى حانة الطابق الأول.

كانت الشمس قد أسرعت فى الغروب وانتشر فى جو الغرفة ضوء ضئيل تسلل من النافذة.

عندما رآنى أهل القرية هدأت أصواتهم مرة واحدة، وأثناء توجهى فى طريقى المعتادة من الباب الرئيسى للنزل إلى غرفتى الخاصة، كان عليّ أن أتحمل هذا الصمت المشبع بالاحتقار.

وعند وصولى أول درجات السلم أخيرا فتح أحدهم فمه قائلاً:

- «سيادة الراهب، ألا تشاركنا مرة وتشرب معنا الخمر، أو تدخل معنا الحمام؟»

تسربت فى المكان ضحكات أفلتت من بعض الرجال، لكن الرجل واصل كلامه دون أن يُظهر أى شيء يدل على انتظاره إجابتي:

- «لقد سمعت أن سيادة الراهب جاء إلى قريتنا خصيصا ليقابل ذلك الرجل الغريب الأطوار، نقدر إرهاقك وتعبك، هاه ..، أليس كذلك؟!»

حث هذا الكلام رجلا آخر فرفع صوته عاليا ثم تلاه أشخاص آخرون، وتشابكت أصواتهم.

- «إذا كان قد جاء من مقابلة بيير، فهو حتما قد قابل غيوم.»
- «غيوم؟!»
- «من يكون غيوم هذا؟!»
- «لا أعلم، من يكون غيوم هذا؟!»
- « ...، آه ...، غيوم!»
- «لا تستغبى يا رجل.»
- «إنه غيوم الحداد.»
- «بل إنه الأعرج ذو الرداء الأزرق.»

ملأت المكان ضحكات عالية وصاخبة، بعضهم أخذ يردد ويهتف «الأعرج، الأعرج» ثم «الرداء الأزرق، الرداء الأزرق» وبعضهم أخذ يصاحب ذلك بالطرق على المائدة، وبعدهم أخذ يدق الأرض بقدمه، وكان هناك من أخذ يطرق على أوانى الطعام.

أما أنا فقد أرجعت قدمى التى كنت قد وضعتها على أول درجات السلم، ثم نظرت نحوهم، لكن لم تتوقف أصواتهم، فى وسط هذه المعمعة الصاخبة ، رفع أحدهم عقيرته مرة واحدة وبعنف قائلاً:

- «مهلاً، مهلا يا رجال، يجب علينا شرح الموضوع لسيادة الراهب، ألا ترونه قد أخذه الذهول.»

عندها وقف فجأة رجل كان موجودا فى الوسط، وقال ردا على ذلك:

- «أجل، أجل الرداء الأزرق رمز للرجل المخدوع، وذلك ما جاء ذكره فى آيات العهد القديم، الآية رقم مائة وثلاث وخمسون».

وقع الجميع على الأرض من شدة الضحك.

- «يا لك من كاذب.»
- «لست كاذبا ، أقسم بالقديس أرناؤول إنه للحق، ....»

بعدها غيّر الرجل من لهجته، مقلدا جاك أثناء الوعظ وتكلم بحماس عن الشائعات التى تدور حول غيوم، وتلخيص هذه

الشائعات كما يلى، فتح غيوم الذى وُلد بعاهة وفشل فى الحصول على زوجة، محلا للحدادة على أطراف القرية ليقتات منه، وفى يوم ما حلّت على القرية امرأة على شاكلة الغجر، امرأة لا يُعرف لها أصلٌ، وسرعان ما انتشرت شائعة أنها على الأغلب بغى أو شيء من هذا القبيل ولكن لا أحد يعلم الحقيقة على وجه الدقة، لكن كانت لها جاذبية هائلة، بسببها أصبحت فى فترة وجيزة معروفة لدى جميع أبناء القرية، أصبحت هذه المرأة لظروف ما بعد مرور مدة قصيرة تعيش تحت كنف غيوم، بالطبع أهل القرية أصابتهم دهشة كبيرة لذلك، ثم أصبحت هذه المرأة زوجة لغيوم، ولكن الشيء الذى أصابهم بالدهشة أكثر هو أن المرأة بعد ذلك وبعد مرور فترة ليست بالطويلة، سفحت مع الكاهن يوستاس الذى لطويل على مجيئه للقرية، هذا ما دعى أن يُطلَق على غيوم لقب ذى الرداء الأزرق، ثم أنجبت المرأة بعد ذلك طفلاً، لكن بعد ولادته وجدوه علاوة على تخلفه العقلي، أبكم، وهو الطفل الذى كان يلعب بالأرجوحة منذ قليل، إنه جان.

الرجل الذى تحدث بشكل منفعل دون أن يغمض له عين من سخرية هذه الحكاية، أنهى حديثه بالفقرة التالية:

- «لا يوجد أى شك فى أن جان هو ابن الكاهن المزيف السكّير، هذه هى إرادة الرب، أى إنه عقاب إلهي، آمين.»

أطلق الجميع صيحات الإعجاب، ومرة أخرى حدث هرج ومرج فى المكان، ....

فى هذه الليلة رأيت فى منامى حلما .

أثناء الترحال، فى طريق ليس بها أحد تقريبا ، يأتى من بعيد قطيع أسود متجه نحوي، عند النظر بدقة كان القطيع عبارة عن طابور من مرضى الجُذام.

أوقفت خطواتى فجأة ووقفت على جانب الطريق أنظر لوجه المرأة التى تسير فى مقدمة الركب، تنساب شفاه جميلة الحُمرة

من تحت النقاب الذى يهتز بفعل نسمات الهواء، لون بشرتها أبيض شفاف، لا يلاحظ عليه أى أثر للمرض، عرفت فى الحال أن هذه المرأة هى زوجة غيوم، ثم فجأة وعندما حوّلت نظرى تنبهت إلى أن تلك الشخاليل التى فى أيديهم منذ البداية لا يصدر عنها أى صوت على الإطلاق، وهو شيء يعتبر فى غاية الغرابة؛ ذلك لأنهم يهزونها بقوة فى كل خطوة يخطوها إلى الأمام، فى ذات اللحظة التى تنبهت فيها لذلك أوقفوا حركة أقدامهم فجأة بجواري، رفعت المرأة وجهها القابع خلف النقاب ثم تقدمت نحوى وبدأت تهز الشخاليل بشدة وعنف أمام وجهي، ....، ولكن العجيب أنه لم يصدر أى صوت، وبنفاذ صبر هزتها بعنف أشد وهى غاضبة، لكن لم يصدر صوت، عندما رأت المرأة ذلك عوجت فمها ببطء بشكل فاضح، وكما لو أن هذه إشارة لهم بدأ الجميع فى وقت واحد يهزون الشخاليل بعنف شديد بعد أن رفعوها أعلى رؤوسهم، استطعت أن أرى استمرار اهتزاز ما داخل الشخاليل أكثر مما خارجها، كان قلبها صغير الحجم يأخذ شكل ثمرة الكمثرى، ويصطدم بجدارها يمينا ثم يسارا ثم يعود يصطدم باليمين ثم باليسار ثم مرة أخرى يمين .، يسار ...، ومع هذا فإنه لا يُصدر أى صوت، كلما أمعنت النظر، أصبحت أكثر توترا ؛ لأن هذه الحركة تقترب منى وتدفعنى إلى تذكر مشهد ما فى ذاكرتى.

ولأجل الهرب من ذلك تقهقرت خطوتين أو ثلاث خطوات إلى الخلف، فى نفس الوقت تقريبا كان شخص ما يربت على كتفى من الخلف، ثم سمعته يهمس فى أذنى قائلاً:

- «إنه أبكم.»

... انتهى الحلم عند هذا الحد.

فى اليوم التالى، زارنى جاك ميكائيليس زيارة لم أكن أتوقعها.

وقد أخبرنى جاك أنه جاء إلى المنزل بمفرده بعد أن انتهى من وعظه فى الكنيسة وطلب من زملائه الباقين العودة إلى المدينة، لَبَّيْتُ أنا الذى كنت مُنْهَكا من الفراغ دعوة جاك للخروج معه إلى هضبة تقع جنوبى غرب القرية.

كانت السماء صافية للغاية، نستطيع رؤية القرية بأكملها من هذه الهضبة، اجتمع فى مقلتى الصغيرة شكل القرية الغريب وأحوال أهلها، ومنهم من كان ينظر ناحيتنا ويلقى علينا تحية إجلال واحترام، كلهم أتباع ومريدى جاك.

جلسنا فوق العشب فى استرخاء نتجاذب أطراف الحديث لفترة، تركت له العنان فى تسيير دفة الحوار وحكيت له عن أشياء لا معنى لها حدثت لى أثناء السفر، وبيّن لى جاك تاريخه العلمى والوظيفى، اتضح أنه يكبرنى بحوالى عشرة أعوام، وأنه تخرج من جامعة تولوز، وهو الآن يتبع دير فييان، وقال: إنه بدأ يزور هذه القرية للوعظ والإرشاد منذ حوالى عام.

كان جاك كما يبدو فى عظاته المعتادة ذا لسان بارع للغاية، بعد أن تكلم عن حياته الحالية دفعة واحدة، نقل مجرى الحديث الآن إلى أحوال القرية، وأخذت نبرة كلامه تنفعل تدريجيا ، خاصة عند الحديث عن انعدام الإيمان لدى أهل القرية، أعرب لى عن استيائه الشديد من ذلك.

- « ... ومع ذلك فهم الآن أصبحوا أحسن بكثير عن ذى قبل، عند أول زيارة لى للقرية وجدتهم لا يقيمون القداس الإلهى على الإطلاق، حتى هذه اللحظة يقام مرة واحدة فقط فى الأسبوع، وحتى الآن لا يزيد الأمر عن مجرد إقامة قداس من الطقس الثالث فقط، ولا يوجد شيء آخر، ...، على أى حال حينما جئت كان الوضع فظيعا ، وحتى لو أقيم قداس فى وقت ما، كان الشبان والشابات يستغلونها فى الذهاب إلى الكنيسة بحثا عن لقاء، وفى أثناء طقس التناول المقدس، كانوا يتبادلون أحاديثهم الخاصة، بل أن بعضهم كان يتواعد على اللقاء سرا ...، وليس هناك أدنى شك فى أن حالة السقوط التى كان عليها الكاهن المسمّى يوستاس هى السبب الأكبر فى حدوث ذلك.

- انظر.»

قال جاك هذا وأشار بيده إلى أطفال القرية الذين يلعبون بكرة صنعوها من قطع القماش البالية.

- «لأن الكاهن على هذا الحال فإن أطفال القرية جميعهم أميون، توجد هناك كلمة منافق، إن هذا الرجل هو بالضبط الشخص الذى يناسب هذه الكلمة، ....»

بينما أبديت موافقتى على ما يقول، تذكرت حكاية يوستاس وزوجة غيوم التى سمعتها من أهل القرية بالأمس.

استمر جاك قُدُما وهذه المرة أخذ يعدد سيئات أهل القرية،

وراح ينتقدها واحدة بعد أخرى بعنف وشدة كمَن لا يجد الطريقة التى يعبر بها عن سخطه، كلما سمعت منه تيقنت أن جاك يحتقر أهل هذه القرية أكثر منى بكثير وأحسست بالدهشة لذلك، ...، كان احتقار جاك لهم مفضوحا وواضحا للعيان.

لا أدرى كم من الوقت ظللت ناظرا إلى الأفق، السحاب الآتى من جهة الغرب يتهادى ببطء مخترقًا سماء القرية، كانت الأرض تتلون بظلال السحاب مثل شاطئ البحر الذى تبللت رماله بالأمواج.

... ثم فى نهاية مرمى البصر، يوجد جان.

كان الفتى الأبكم كالأمس يتأرجح بعنف على الأرجوحة، لم أستطع من مكانى التطلع إلى حاله، لكن فى الغالب هو الآن بلا أى شك يضحك دون صوت.

غيوم لم يقل لى إنه متخلف عقليا ، صدّقت أنا ذلك رغم أن الأمر ربما لا يزيد عن كونه افتراء من أهل القرية عديمى الرحمة، ومع ذلك لم أحس بأى نوع من الشفقة، كان الإحساس الوحيد بداخلى هو الخوف، وإذا تكلمت بلا تحفظ، هو إحساس بالحقد ليس له مخرج، لقد كان من الصعب عليّ قبول تلك اللعبة التى ليس لها أى هدف أو فائدة، كانت النقطة الوحيدة فى هذا العالم التى تبدو وكأنها تخلصت بشكل ما من نظام الكون وتحررت منفردة من كل أنواع القيود، فكما تأكل حشرة القرضة الملابس، بدا نظام الكون لى وكأنه يتآكل، وشككت أن الشر ربما فلت خارجا من نظام الكون المتكامل، وقد انفصل الشر عن ارتباطه بالخير، وهو ما سبب لى امتعاضا رهيبا .

لقد احتوتنى أفكار كئيبة، لقد بدا لى وجه جان الضاحك وفمه المعتم الذى يحتويه، وكأنه بالفعل كهف يوصل إلى عالم غريب

ومخيف، ومن فُتحة الكهف أيضا بدا عن بُعد صدى لصوت مقزز يتردد بلا انقطاع ساخرا من خلق الله، كل الجهود المختلفة التى أحاول بذلها فى مجال العلم تذهب سُدى، فقط بسبب هذه النقطة الوحيدة، إلى الدرجة التى أشعر فيها بشعور غامض يقول إن كل جهودى تلك سوف تصبح مثل زبد البحر، لكن من ناحية، كلما فكرت فى هذا اللسان الشاحب لونه ذو الطول المريب الذى يتدلى من تلك الفتحة المظلمة، أتساءل أليست هذه المقززات العديدة، على عكس المتوقع تحتوى بداخلها على أصل المشاكل التى يجب عليّ حلها من البداية؟ ألا يمكن أن يكون العالم الآخر بالأحرى يكمن فى أعمق الأعماق السرية لبطن الكون نفسه؟ أليس من الممكن أنه تحت القشرة السطحية من الكون الذى نؤمن به ونعيشه فى العادة ونحاول أن نفهمه، توجد طبقات عملاقة أكثر تعقيدا وأكثر خصوبة بكثير، وبها هى بالتحديد يتأكد بشكل واضح الغرض من خلق الله للكون؟ والآن، أليس هذا الفتى دون سواه هو الذى يُرينى خلسة تلك الطبقات الأخرى؟

ربما كان نظاما منهارا ومختلا تماما فيما يخص جان، ولكن إذا كان الشيء الذى آمننا به كنظام لا يزيد عن مجرد كونه نظاما للطبقة القشرية منه فقط، أو إذا كانت جهودى أنا العلمية لم تكن إلا مجرد جهود موجهة نحو تلك القشرة فقط، إذا كان الحال كذلك أليس من الممكن أن يكون الفتى جان هو كوة صغيرة فتحها لنا الله ليُطلعنا على هذه الحقيقة؟! والآن ألا يجب عليّ أنا أن أكتشف الطبقات الأخرى تلك للمرة الأولى من خلال ثقب صغير بحجم ثقب إبرة مفتوح فى هذا العالم العملاق؟! مرة أخرى تذكرت حركة جان عديمة الجدوى، هذه الحركة التى لا تحقق أى إنجاز على

الإطلاق، ربما هى مجرد تكرار لا نهاية له ولا هدف، أو ربما تكون هناك طريقة ما أوصلت هذه الحركة إلى ما هى عليها الآن دون انتظار أن تحقق أية أهداف، أو ربما هنا بالفعل ... مرة أخرى أثناء تفكيرى هذا داهمتنى شكوك مفاجئة... ثم أصبحت هذه الأفكار تسبب لى امتعاضا لا حدود له، طبقة أخرى تختلف عن عالمنا هذا، فى البداية أحسست بالريبة من أن حدسا غريبا عن عالم آخر يقيدني، ما هو يا تُرى؟ بالضبط هذا الشيء الذى اعتبرته أنا كذلك هل هو الجحيم؟ هل هو المَطْهَر؟ لا إنهما فى النهاية بجوار الرب تماما ، الذى فكرت فيه أنا هو شيء مختلف عنهما تمام الاختلاف، عالم يبدو وكأنه خارج إطار مخلوقات الرب أصلاً، عالم استطاع الهرب من النظام الكونى الذى خلقه الحاكم الأوحد لهذا الكون، وكأنه ينضوى تحت نظام ما مختلف، أو هو من الأصل عالم لا يعرف النظم فى حد ذاتها، من خلال هذه التخيلات البلهاء توصلت إلى فكرة وجود طبقة أخرى داخل هذا العالم، تخيلت منظر النتائج التى انحرفت عن نظام أسبابها الذاتية ولم تعد إلى أى من الأسباب الأخرى مهما كانت، وهى تتساقط من منظومة السببية الكونية وتترسب مكوّنة طبقة فى أعماق قاع العالم،٠ثم أنا الآن أكاد أغرق فى هذه التأملات عديمة الجدوى حولها، لكن، انقسام هذا العالم إلى طبقتين مختلفتين هو فى الواقع رأى مستبد لى أنا، لا ريب أن العالم بأكمله منذ لحظة خلقه وهو وحدة واحدة مرتبطة ببعضها، هدفها الأسمى هو الكدح نحو الإله الواحد ولا سواه، إذن ألا يكون وعيّ أنا هو الذى كوّن هاتين الطبقتين؟ ألا يكون الثقب هو ثقب فى قاع مقلتى أنا وليس ثقبا فى العالم؟ جان ليس اختراقا لسطح العالم، بل هو أحد السهام التى رماها الرب،

بل أليس عدم إصابة الهدف هو فى حد ذاته أحد سهام الرب الموجهة للبشر؟ ....

يبدو أن استغراقى فى هذه الأفكار، جعل جاك يشعر بحرج ما فغيّر موضوع الحديث، وأشار إلى كتاب كان يحمله معه، على غلاف الكتاب كان مكتوب «وقائع إجراءات محاكم التفتيش» وتحت ذلك يوجد اسم المؤلف وهو «برنارد غوى».

حينها عرفت لأول مرة أن جاك محقق من محققى محاكم التفتيش.

سألنى جاك عن رأيى فيما يخص هرطقة الطوائف الغنوسية ومن ضمنها الديانة المانوية، بعد لحظة تردد، ذكرت رأيى تجاه نقطتين أو ثلاث لامسا بشكل خاطف الأجزاء المركزية منها، لم يكتف جاك بذلك؛ لذا استمر فى سؤاله بشكل أكثر تفصيلاً، ولكنى أَجبت على ذلك بأسلوب غامض.

يَئس جاك فسكتَ عن الكلام.

بعد مرور فترة من الوقت، وضع جاك الكتاب جانبا ، ثم بدأ يحكى عن من يُطلق عليهن الساحرات، طبقا لما قاله جاك، فإن محاكم التفتيش الحالية ليست قاصرة على القضايا العقائدية فحسب، ولكن يدخل فى اختصاصها أيضا من العامة هؤلاء الذين يرتبطون مع الشيطان بعلاقة إباحية مباشرة ويقيمون طقوس تدنيس للرب، على ذكر ذلك، أذكر أن القرار البابوى الذى أصدره البابا سيئ السمعة اينوسنتيوس الثامن بخصوص الساحرات كان بعد عامين من ذلك الوقت فى الخامس من سبتمبر عام ١٤٨٤.

- «منذ العام الماضي، تُعقد فى أبراشية كونستانتس محاكم تفتيش للساحرات بشكل ضخم، بالطبع الأكثرية ممَن ألقِى القبض عليهن أُعدمن، ....»

ثم تابع جاك حديثه فحكى فى البداية عن تفاصيل وصوله إلى رأيه الحالى فيما يخص الساحرات، قال جاك الذى كان موظفا فى محاكم التفتيش منذ بدايتها، إن جهله عن هذا الموضوع زال منذ عدة سنوات عند لقائه بإنستيتوريس عضو جماعة الدومينيكان، على الأرجح إنستيتوريس هذا يقصد به هنريك كرامر الذى ألف فيما بعد مع جاكوب سبرينغر كتاب "مطرقة الساحرات».

بعدها أخذ جاك يشرح شرعية الحكم بالإعدام على الساحرات مستخدما كدليل آية من الكتاب المقدس فى "سفر الخروج" تقول «لا تدع ساحرة على قيد الحياة»، كانت هذه الكلمات فيما بعد هى التى ظلت تتكرر على ألسنة قضاة محاكم التفتيش طويلا، كان لدىّ اهتماما عظيما بأمور الهرطقة، أمّا ما ذكره جاك عن الساحرات فلم أستطع تصديقه على الفور، كانت رؤية جاك بها نوعا من ضيق الأفق المنتشر بين قضاة محاكم التفتيش، وكذلك كان بها جمود، إذا استطعنا تشبيه الكلمات بالعضلات التى تشكلت أساسا بالتدريب عن طريق سوط مثالي، فإن كلمات جاك كانت تلتصق بها تجمعات من الشحوم والدهون عديمة الفائدة، مما يجعلها فاقدة التوازن تماما .

لم يكن أمامى إلا التظاهر بالموافقة على كلامه.

أخيرا وجه جاك لى سؤالا وهو يراقب انفعالاتي:

- « ...، بالمناسبة، ماذا عن هذا الرجل الذى قابلته بالأمس؟»

أحسست فجأة بعدم الارتياح لهذا السؤال، فتعمدت رد السؤال بسؤال:

- «أى الرجال تقصد؟»

بالطبع أنا أعرف مَن يقصد جاك.

- «أقصد بيير ديوفاي، ماذا ...؟»

- «إنه ...!»

قاطعت سؤال جاك محاولا قول شيء ما، لكن كلماتى لم تتواصل.

- « ...، إنه ....»

وقتها كان تفكيرى كالتالى، أعنى أن جاك جاء خصيصا إلى النزل ودعانى للخروج معه إلى هذه الهضبة واستهلك ما سبق من كلمات، كل هذا لكى يسألنى فى النهاية عن ذلك الأمر، لابد وأن ذلك سببه أنه يتقصّى عن الرجل سرّاً ، مما جعلنى أحس أنه تصرف دنيء منه، هذا الإحساس هو سبب اندفاعى فى الكلام بلا تفكير محاولا المقاومة.

وقتها على الأرجح كان تفكيرى أن أقاطع كلام جاك، وأدفع عن بيير كل الشبهات التى تحوم حوله، لكن حال أمر ما بينى وبين فعل ذلك.

لم أعرف ما هو هذا الأمر، لكنى فقط تذكرت الكلمة التى قالها أسقف مدينة ليون عن بيير، حينما قال «بالطبع هو يحمل إيمانا مؤكدا »، لماذا حرص الأسقف على قول ذلك؟ أليس هو السبب ذاته الذى جعلنى أحاول الآن أن أقول لجاك نفس الكلمة؟ هل تأكيد الأسقف لى على ذلك هدفه الأساسى إقناع نفسه به أولا؟ الفارق بينى وبين الأسقف أننى الآن أقف مترددا قبل الإقدام على ذلك.

بعد برهة، تكلمت بصعوبة، لأننى كرهت أن يرحل الصمت الزائد عن الحد بعيدا عني، ويكوّن معنى آخر غير الذى أريده.

- « ... بخصوص هذا الرجل، أنا لا أعرفه جيدا حتى هذه اللحظة ....»

ولكن كانت تلك وعلى غير المتوقع، كلمات ليس فيها أى خداع.

بعد عدة أيام زرت منزل بيير ديوفاى حسب موعدنا.

كان بيير فى ذلك اليوم أيضا منهمكا فى صنعة البياض، لكن ما أن استقبلنى حتى أخذ استراحة من العمل وجلس على المقعد أمام أرفف الكتب، تبعته أنا بالجلوس بعد أن دعانى لذلك، للحظة ملأتْ أنفى روائح العقاقير النفّاذة ورائحة الأوراق العفنة المنبعثة من الكتب القديمة.

كان بيير كعادته قليل الكلام، وهو رجل على قطيعة تامة بعادات البشر، حيث يجهدون أنفسهم فى التبسّط مع محدثيهم للتخفيف عنهم، فهو لا يتلطف ضاحكا على الإطلاق، ذلك اليوم أيضا جلس قبالتى فى هدوء راسخ، كان ذا وقار لا يعطى لمن يراه أى شعور بالاستياء، أحسست من جديد بعظمة هذا الرجل.

بعد أن هدأت نفسى قليلاً، سألته وقد تعلمت من المرة السابقة عندما تكلمت بارتباك وتلجلج، سألته عن علم الخيمياء بشكل متعمق وتفصيلى ومتسلسل، بعد أن سألنى بيير فى البداية؛ لكى يتأكد «هل أنت من أتباع توماس؟»، لم يتكلم من تلقاء نفسه أبدا ،

كان فقط يقول بعد كل سؤال «فهمت»، ثم يجيب على قدر ما سُئل إجابات مختصرة، كلمة "فهمت" هذه كانت هى كلمة بيير المعتادة، بعد أن أسأله السؤال يقول «فهمت» ثم يحرك رأسه لأعلى ولأسفل عدة مرات، بعدها يصمت برهة ثم يبدأ فى إبداء رأيه، كلمة "فهمت" تلك أضحت فى سمعى عميقة المعنى إلى حد ما، وكل ما يتبع ذلك من كلمات الإجابة تولّد لدىّ إحساس بأن ذلك هو أول شيء أحصل عليه منذ دخولى البيت.

كلما تقدم بنا الحديث قُدما كلما لاحظت أن آراءنا تتحد فى الكثير من النقاط، لكن كانت هناك مسألة لم أستطع فهمها إلى النهاية، ليس فى نيتى أن أناقش هنا قضايا فلسفية معقدة، ولكن لأن هذا الموضوع أساسى جدا فى فهم علم الخيمياء، سأكتب فقط تلخيصا للموضوع.

وهو على النحو التالى:

يؤمن بيير بإمكانية وجود الذهب فى هيئة حقيقية داخل جوهر كل المعادن، لن أناقش الآن صحة هذه النظرية، وبناء عليه فكل المعادن هى من حيث الأصل الطبيعى حتما تؤول إلى الذهب، يتابع بيير كلامه ويقول: إنه من المستحيل علينا إذن أن نحوّل جوهر كل معدن إلى ذهب مباشرة ثم يتحول فى الحال من حيث المظهر إلى الأصل الطبيعى للذهب، والسبب هو كما ذكر القديس توماس قائلاً: «إن قوة المعادن تتولد بواسطة حرارة الشمس عاملة بشكل خاص فى مكان محدد.» ويضيف بيير أنه حتى لو واصلنا العمل دون اعتبار لهذا الكلام، فغالبا ما سنحصل على شيء يشبه الذهب فى مظهره الخارجي، ولكنه بالتأكيد يختلف من حيث الجوهر عن الذهب.

ولذا يرى بيير أنه من الضرورى صنع ما يُسمّى حجر الحكماء لحل هذه المشكلة.

أكّد بيير على ذلك أكثر من مرة وهو ينتقد القديس توماس؛ لأنه لم يُشِر فى كلامه إلى حجر الحكماء، كما كتبت منذ قليل حجر الحكماء ولا شيء غيره هو الهدف الأساسى والنهائى من العمل فى صنعة الخيمياء، من أجل الحصول على ذلك الحجر يتبع بيير النظرية التقليدية «كبريت زئبق».

هذه النظرية، نظرية العناصر الأربعة لأرسطو، أُعيد تفسيرها بشكل غريب عندما انتقلت إلينا عن طريق العرب، طبقا لذلك التفسير عادت العناصر الأصلية الأربعة التى هى التراب والماء والهواء والنار إلى عنصرين أساسيين اثنين هما كبريت فلسفى وزئبق فلسفي، بالطبع الكبريت والزئبق المذكوران هنا ليس بشكلهما المادى، ولكن بوصفها نظرية، يتكافئ التراب والنار مع الكبريت، والماء والهواء مع الزئبق، ويتضادان ولا يمتزجان، علاوة على أن كليهما له طبيعة متحولة وطبيعة غير متحولة معا، طبيعة قابلة للاشتعال، وطبيعة متسامية، ثم يحملان ما يطلق عليه فى مصطلحات الخيمياء، طبائع متناقضة كالذكر والأنثى، يُستخرج هذان العنصران من مواد معينة وعن طريق اتحادهما معا يمكن الحصول على «اللّبيس»، وهى المادة الأولية المباشرة لحجر الحكماء، وفى العادة يتم تشبيه هذه العملية «بالزواج»، مادة اللبيس التى حصلنا عليها عن طريق «الزواج»، يتم عليها عمليات «حرق» و«تخمير»، ثم عملية «إعادة للحياة» مرة أخرى وعندها نكون قد حصلنا على حجر الحكماء فى هيئته الفعلية، ويقول بيير: إنه

بتكرار هذه العملية يمكننا الحصول على حجر الحكماء.

بيير عند حديثه عن «الزواج» استخدم كلمة غريبة ألا وهى انصهار الجوهر، بل أنه يؤكد على أن الجوهر الجديد الذى تكوّن بعد الانصهار يظل محتفظا بالصفات الأصلية للاثنين معا دون أن يفقد منها شيئا رغم التناقض الذى بينهما، ثم بعد "الموت" إذا كان ذلك ممكنا حقا، ستختفى الاختلافات وتتحد داخل جوهر واحد، عندها سيظهر هذا الجوهر الواحد جليا واضحا فى شكل وجود كامل.

عند الوصول إلى هذه النقطة أصبح كلام بيير غارقا فى التخفّى والإبهام، مما يجعلنى من تلقاء نفسى أكتب تعويضا وتكميلا لكلامه، لا أدارى خوفى للأسف الشديد أن أبلّغ النظرية بشكل خاطئ بسبب عدم اكتمال فهمى لكلام بيير، خاصة الأمر الذى يجعلنى مترددا أكثر هو الكتابة عن الجزء الأخير من النظرية.

فعند الحديث عن ظهور حجر الحكماء، أخيرا تحدث بيير عن «وجود» ولم يزد، لكن كان واضحا ماذا يعنى ذلك، بعد حصول الخيميائى على حجر الحكماء، بمعنى الحصول عليه فى شكل وجود مادى طبيعي، يستخدمه كما يحلو له.

هذا الوجود إذا شئنا القول، عن طريق لمس مادى لشكل خالص، يتولد داخل المادة شكل محسوس للذهب، وتتغيّر المعادن مرة واحدة بالوصول سريعا إلى الذهب، ليس فقط المعادن، لو اتبعنا كلام بيير، فإن كل المخلوقات فى هذا العالم تقريبا تتحد جميعها جوهرا ومظهرا ، بل أنها تستطيع العودة من حالة النقص إلى حالة الامتلاك الكامل، بالطبع الإنسان أيضا ليس استثناء، الكفيف يعود الضوء إلى عينيه، والأبكم يميز الصوت، ومريض الجذام

يشفى، إطلاق اسم دواء لكل داء على حجر الحكماء سببه كل هذا.

لكن هل يا ترى هذا كلام عقلاء؟

وصل اقتناعى بنظرية بيير إلى حد معقول، ولكن لابد من الإقرار أنها محاولة ميؤوس منها، وهذا اليأس ليس نابعا من أخطاء فى النظرية، ولكنه نابع بالأخص من هذا الفعل الذى لا يحمل في ذاته أى تواضع، أنه ما يطلق عليه تمنّى المستحيل، أثناء النقاش حاولت طرح عدة أسئلة على بيير تخص هذه النقطة، ولكنى فى كل مرة فشلت فى ذلك، حيرتى كانت كمن رأى تمثالا لإله الشر جميلا ورائعا بلا مثيل، هل يستطيع الإنسان مشاهدة لوحة تمثل العذراء والملائكة وتقييمها فى الحال وعد نقاط الضعف فيها؟ مثلا أن يقول: إن جناح الملاك يجب أن تتلألأ كل ريشة به فى بهرجة وبياض، أو أن عيون العذراء لا يجب أن تكون بهذا الفقر، بل يجب أن تكون أكثر رحمة، ويجب أن ترسم أكثر رخاء ورفاهة، مهما كان الشخص عديم الفصاحة تماما فهو يستطيع على أى حال التحدث بهذه الكلمات بشكل من الأشكال، لكن عند النظر إلى لوحة لإله وثنى وتكون لوحة رائعة لا تعلوها لوحة فى الجمال، كيف يمكن للإنسان أن يُقيمها؟ لا شك أنها فى غاية الريبة، لكن قطعا الرفض الكامل لها سيعطى إحساسا بخسارة ما، وذلك لأن اللوحة بها سحر ما جذّاب لا يُقاوم ولا يُعرف كنهه، هنا يبدأ الإنسان فى العمل على توضيح الأخطاء بشكل محدد، وعندها، حتما يجد حيرة فى كيفية اختيار نقطة البداية، والسبب أنه فى النهاية لا يستطيع التكلم أبدا ، دون التطرق إلى هذه النقطة المريبة، أو تركها كما هى.

لم أجد كلمات لأقولها.

قام بيير دون أن يُغير من ملامحه، وتوجه ببطء ناحية تنّور الخيمياء، تذكرت فجأة وأنا أنظر إلى هذا المظهر المهيب، حكاية العملاق الوثنى الذى لا يقهر، الذى خالف أمر الله وسرق النار من أجل الإنسان، وظل يتحمل بسبب ذلك العذاب الأبدى بثبات.

مرت برهة، لكننى حملت نفسى على التكلم.

- «.. ظهور ما تسميه أنت حجر الحكماء هنا كوجود، .، معناه ...»

عند هذه اللحظة مر بخاطرى فجأة سؤال جاك.

«ماذا عنْ هذا الرجل؟»

- لم تتواصل كلماتى، ظللت لفترة أراقب بصمت بيير الذى كان جالسا أمام تنّور الخيمياء، وكأنه لم يسمع من كلامى أى شيء، ثم فى النهاية شعرت بالكآبة تسيطر على جوانحي، إنها الكآبة التى يمكن أن نقول: إنها تجاه ترددى أنا وحيرتي، كلمة واحدة فقط هى ما كنت أحاول قولها لبيير، لكنى من أجل قول هذه الكلمة، كان يجب عليّ أن أخلصها من كل سلاسل الحيرة العديدة المكبلة بها، وأحلها واحدة بعد أخرى، ربما تعود هذه القيود إلى طبيعة بيير الشخصية، أو ربما تعود إلى الجاذبية التى تمتاز بها نظريته العلمية، على كلا الحالين، لم أستطع بسبب الجبن أخذ قرار بمحاولة التعامل الفورى هنا مع كل الأمور.

لم أجد أمامى إلا ربط الكتب التى حملتها معى عند مجيئي، واستأذنت بيير فى الانصراف، بدا بيير وكأنه يفهم بالكامل معنى صمتى وأجاب عليه بصمت مماثل، أثناء مرورى بجانبه متوجها إلى الباب، سمعت صوت أقدامى المرتعدة وهى تتردد داخل الغرفة

الغارقة فى صمت مطبق، وأنا أتذكر من خلال هذا الصوت الخافت ما أنا فيه من جبن وخوف.

... بعد ذلك لم أجد لدى رغبة فى العودة إلى النزل، ووجدت نفسى أهيم داخل القرية بلا هدف أسعى إليه، أغلب أهالى القرية بلا استثناء بين رجل أو امرأة خارج منازلهم، كل منهم يلتحق بعمل ما، كانت تلك هى أول مرة أحاول فيها رؤية الحياة المعيشية للناس هنا بقدر من الوعى ولو قليل.

رجال القرية الذين عادة ما يأتون للخمارة عند الغروب، يقفون الآن جميعا بكامل طاقتهم أمام قمح الشتاء الذى يبدو كاحلا ضعيفا وقد علا على وجوههم الوجوم، لم يعرنى أحد باله حتى لو صادف ورآني، بل يستمر فى عمله، أو بالكاد يبتسم فى برود وهو يتنهد تنهيدة تثير الشفقة، إنهم يرتعدون خوفا من ذكرى كارثة البرد الشديدة فى العام الفائت، درجة الحرارة لم ترتفع على الإطلاق رغم أننا فى هذا الموسم من العام، وفى الواقع ليس القمح فقط، بل كل المحاصيل إذا نظرنا إليها نجدها قد أصابها المرض.

فى فترة وجودى فى ليون كان زميلى الراهب فى الغرفة لا يمل من الشكوى من تكليفه بجمع التبرعات من القرية، وعندما سألته عن السبب، أجاب لأن أهالى القرية يرون فى لبسنا ملابس رثة وجمع التبرعات كسل وليس زهدا، وأضاف زميلى الراهب قائلاً:

- «لقد أصابنى صياحهم وازدراءهم أكثر من مرة، قالوا لى: بدلا من التسول يجب عليكم أن تعملوا فى حرث الأرض مثلاً، بالطبع أنا لا أشكو لأننى أكره صياحهم، ولكن ما يؤلمنى هو أن ما يقولونه هو عين العقل، والحقيقة أنه بسبب كارثة البرد الشديد

العام الفائت لم يُحصد فى القرية أى محاصيل ذات قيمة، بأى حق نطالب أهالى القرية أن يعطونا صدقات؟ منذ متى يا ترى وصلنا إلى هذه الحالة؟ هل حياة الدير هذه هى ما كان القديس دومينيكوس يريده؟»

- لم أكن أقوم بجمع التبرعات ولكننى أستطيع تخمين ما يدور فى قلبه؛ إذ ربما يكون ما أحسُّ به الآن من شعور به نوعا من العار، تجاه أهالى القرية، نابع هو أيضا من ذات الإحساس بقلة الحيلة.

من السهولة بمكان معرفة مدى ما وصلوا إليه من فقر بنظرة واحدة على معاطفهم المتسخة التى بها الكثير من الرُّقع، أهالى القرية غاضبون بالفعل من جدب الأرض الذى طال، لكنهم لا يتوجهون بغضبهم إلى الأرض مباشرة، إنهم على العكس يتوجهون بسخطهم إلى السماء، لقد شاهدت مرات عديدة نساء القرية يسبون ضعف وجُبن السماء فى مشهد عجيب، ثم يعطفون على الأرض لكونها ضحية لأفعال السماء، رجال القرية هم أيضا على نفس المنوال، هناك بالفعل لون من الاحتقار فى نظراتهم التى ينظرون بها وهم داخل حقولهم إلى السماء، أما علاقتهم بهذه الأرض البائسة فهى علاقة حميمة وكأنه بينهم وبينها أسرار عميقة مكنونة، أعمالهم تلك تسحرنى بقوة تأثير لا يمكن وصفها شعورى تجاه أهالى القرية به ما يشبه الغيرة قليلا.

لا يوجد بينهم فارق كبير فى مستوى المعيشة مما يساعد على تقسيم العمل بينهم بالتساوي، أراضى القرية على ما سمعت يملكها أغنياء من سكان المدن المجاورة، لذلك لم أشعر هنا أبدا بتسلط أحد الإقطاعيين بشكل فردى على كامل الأرض، وربما كان ذلك

سبب انطباعى عن هذه القرية أنها مثل صخرة منعزلة أطلت بوجهها فجأة فى بحر الذاكرة الضخم.

لكن ماذا عن الكاهن فى هذه الأبراشية؟ فى الواقع لقد ظللت لعدة أيام مضت أفكر فى أمر هذا الكاهن المسمّى يوستاس، كما توقعت فى البداية لم يكن يوستاس إلا مجرد كاهن سقط سقوطا عاديا ، إن أهالى القرية جميعهم لم يثقوا فى هذا الرجل قط، وفى المقابل احتقرهم يوستاس ولم يلق لهم بالاً، على ما يشاع كان من المعتاد أن يتردد على الدير امرأتان أو ثلاث؛ ليغرق معهن يوستاس فى العهر والفجور طوال اليوم، وربما الفتيات اللاتى قابلتهن بالدير عند زيارتى له هن من تلك النوعية، والشائع أن الشماس كان يقوم بدق الأجراس وغيرها من الأعمال الرسمية بالنيابة عنه، ولا يصل الأمر فقط إلى زوجة غيوم، فهناك الكثير من الشائعات التى تحوم حول يوستاس ولا يوجد الوقت الكافى لذكرها جميعا، لا تفارقه حالة السُكْر البيّن مطلقا، لدرجة أنه تنتشر طرفة عديمة اللياقة والتحفظ تقول: "إذا ما كان يوستاس يملأ معدته إلى هذا الحد بالنبيذ فلابد أن دمه أصبح هو بالضبط دم السيد المسيح." حقّا إن سقوط يوستاس هو سقوط عادي، لكن كونه سقوطا عاديّا هو السبب الذى يجعلنى على العكس أعتبره مريبا، السبب أننى لاحظت عليه أحد أنواع الضعف، ولأن هذا الضعف لا يمكن إلا أن يرمز إلى ما تبقى من قوة الحياة الشهوانية حتى الآن، ويرمز كذلك إلى التفاؤل بالبعث فى المستقبل، حالة السُّكْر البيّن لا تنتهي، ولكن أيضا لا توجد لديه قوة تقوده إلى الجنون، ما يمارسه من عهر وفجور فى الخفاء يختلفان كثيرا عن الهوس الصاخب المزعج،

بالإضافة إلى أنه منذ أن علمت أن يوستاس هو الذى بنى مذبح الكنيسة الذى سحرنى فى البداية، ظلت عينى ترى فيه فقط توسطه الفظ، ولم أقدر على حبه بأى حال، ليس فى نيتى على الإطلاق الدفاع عن حياة يوستاس، لكن رغم ذلك سبب اهتمامى حاليا بضعف يوستاس هو أننى أعتقد أنه ضعف حميم لنا بشكل ما، هل سقوطه فقط عبارة عن أن أحد رجال الدين سقط فى حياة العامة الجهلاء بالعقيدة؟ لا أعتقد ذلك، على أقل تقدير ذلك سبب أنه فى نظرى يشكل ضعفا عن السقوط المدوى إذا شئنا الدقة فى التعبير، أراه انتقل بواسطة الضعف من السقوط الحقيقى إلى سقوط فرعي، ثم أنى أعتقد أن ذلك السقوط ليس فقط سقوطا وقع فيه يوستاس فى الماضى القريب جدا ، ولكنه سقوط وقع لنا جميعا منذ زمن بعيد جدا ، كأنه بالضبط ذنب الهبوط العكسي، ....، لقد ارتبت فى وقوعى فى الشبهات، والسبب هو أننى فى تلك اللحظة التى تحللت فيها أفكارى من قيود المثالية، حاولت الربط بين سقوط يوستاس وبين حياة راهب يعيش فى الدير بمنتهى الورع.

بعد أن عبرت الجسر جاءت امرأة للحديث معي، لقد انتشرت فى القرية بالفعل شائعة تفيد بأننى صديق حميم لجاك، وبالتالى كان عليّ أن أتحمل عبء ربع كمية الثقة التى ينالها جاك، فى الحقيقة كانت المرأة من الذين تابوا من خلال وعظ جاك.

طلبت المرأة منى أن أتقبل سماع اعترافها، كنت أقابل فى القرية أناسا كهذه المرأة كثيرا بغض النظر عن المكان، كان ذلك

نتيجة انتشار آراء جاك فى أنحاء القرية؛ لأن جاك أوصى أهالى القرية بالاعتراف بالذنوب التى فعلوها بغض النظر عن الزمان أو المكان، تقبلت ذلك صامتا كما لو كان شيئا عاديا ، بعد أن انتهيت من سماع المرأة قرأت لها بعض الكلمات من الإنجيل ثم فارقتها، كان محتوى الاعتراف مشتتا ، لكن اجتهاد المرأة فى التعبير عن الندم على ذلك تحكّم فى قلبى بشكل مبهم ولكنه واضح.

ثم تذكرت بيير مرة أخرى.

هل يا ترى قد أصابنى عمى تجاه هرطقة مرعبة أكثر من مجرد شعور بالاحترام العادي؟ ....

لقد بحثت عدة مرات هذه الحيرة التى تتفاقم داخلى بسبب هذه الشكوك، كما قال أسقف ليون إن بيير يحمل إيمانا لا شك فيه، إنه يعرف عظمة الخالق ويؤمن بوجود نظام لهذا الكون، وهذا بلا شك المسلّمة الأولى لعلم الطبيعة الذى يحاول بيير بلوغ قمته، وهذا هو سبب ترددى الأساسى فى اتخاذ موقف صارم الآن تجاه شكوكى فى هرطقة بيير، وهو السبب فى شعورى بجاذبية نوعا ما نحو منطق علم الخيمياء، ثم إذا شئنا القول بسبب الشعور بإمكانية التعرف الكامل على مخلوقات الله، ذلك الشعور الذى لا يفارقنى منذ شاهدت جان هنا، بسبب شكى أن حل هذه المشكلة التى تسبب لى معاناة دائمة، موجود فى أعماق غابة سحيقة مبهمة من علم الخيمياء.

لكن ليس هذا بمفرده فقط، إننى بالطبع منبهر لتفرد الشخصية، منبهر لهذه اللامبالاة، فى الأصل، بيير يحمل طبعا غريبا يشبه طباع الوثنيين، لكن ما هى هذه الطباع ياترى؟ هل هو تحمّله وحده ما يحاول إنجازه؟ إن ما جذبنى إليه - إذا شئنا القول

- هو هذا التكبّر، لكن ما يخيفنى أيضا هو هذا التكبّر ذاته؛ لأننى هنا أتعرف على فارق جوهرى يوجد ما بينى وبينه.

..، أثناء عودتى للنزل، تذكرت فجأة عبارة قرأتها مرة قبل السفر فى كتاب «مختارات هرمس» الذى استعرته من أسقف ليون.

- « ...، فلنقلها على الرغم من ذلك، إنسان الأرض إله يموت، وإله السماء إنسان خالد لا يموت.»

لا أدرى ماذا ستحمل هذه الكلمات من روابط بينى وبين بيير، لكن الدهشة التى حصلت عليها من بيير، لم تكن على غير المتوقع تختلف عما يحس به البشر.

منذ ذلك اليوم تكررت زياراتى لمنزل بيير مرات عديدة.

لم يعارض بيير زيارتى له، ولكنه كذلك لم يبد ترحيبا ، كان فقط يسمح لى بالبحث فى الكتب الكثيرة الموضوعة على الأرفف كما أشاء، أغلب الكتب كانت عبارة عن مخطوطات منسوخة، وكانت الخطوط مكتوبة بإتقان وبخط رفيع مثل خط القديس ألبرتوس، أكثر ما شد انتباهى هى الشروحات المكتوبة على الحواف البيضاء لصفحات الكتب، هذه الشروحات الكثيرة فى كل ركن، كانت دليلا واضحا على عمق وصحة فهم بيير لعلم الطبيعة.

بل لدرجة أنى وجدت بها اكتشافات علمية جديدة، رغم قول ذلك، لم تعرف الحيرة التى بداخلى أى نوع من الراحة.

لقد كنت مسحورا بنوع ما من التعاويذ، وأحس بصعوبة بالغة حين أحاول شرح ذلك، ولكن إذا أجبرت على القول، فالسحر هو بيير ديوفاى نفسه.

إننى عندما أتجه إلى منزل بيير، وأثناء قراءتى فى الكتب

بجواره، أحس بإحساس طاغ أن ما يحاول بيير فعله من صنعة هو حق لا ريب فيه، لكن، عندما أفارق المنزل لفترة وأغرق فى التفكير، يتولد فى داخلى قلق يحاول إدخال الشكوك تجاه ذلك، هو قلق تجاه الهرطقة بالطبع.

أنا لم أشك فى العقلية المنطقية لبيير، ما يحاول بيير بلوغه على الأقل فيما يتعلق بعلم طبيعة العالم بالتحديد، أغلبه منطقي، وله قوة بصر غنية تتطرق إلى تفاصيل تسجيلات التجارب المستمرة وتفندها، وهو ما أوجب الدهشة البالغة لى أنا الذى كنت أختلط فى باريس بكثير من الناس الذين يضيعون الوقت فى الكلام حول نظريات غبية تبعث على الضيق، لكنى لم أستطع الفهم على الإطلاق، هذا المنطق الهادئ الذى يحاول فهم النظام الإلهى لماذا ينصهر لحظة صراعه مع حجر الحكماء، تلك الفكرة العملاقة، وتبتلعه تماما داخلها؟ كلما أتذكر ذلك أنتفض رعبا ؛ ذلك لأننى جربت ذلك دون علم منى رغم عدم قدرتى على الفهم.

بالفعل لقد حاولت أكثر من مرة وضع نظرية علمية تدحض إمكانية تصنيع حجر الحكماء، لكن فى النهاية لم أصل أبدا إلى شرح طريقة محددة لذلك، كلما أبدأ فى عمل ذلك، ورغم وجود وقت كافٍ له، أُقيد فجأة بأمر ما عديم القيمة، ثم كلما حاولت أن أستخدمَ نظرية ما، أجد أنه بعد مرور وقت قليل، عند التدليل عليها أصاب باليأس من عدم قدرتي، وأشعر بأن هذه المحاولة كأنها مستحيلة التنفيذ، إذا كان حجر الحكماء هو كما أفكر أنا فيه، فبالطبع أستطيع على الأغلب باستخدام أى نوع من الكلمات

أن أدحضه، رغم ذلك لم أقدر على ذلك مطلقا، الكلمات هنا عديمة القدرة تماما ، عندما أحاول التعامل مع منطق حجر الحكماء، كما لو كنت أحاول صبّ الحمم من فوهة البركان باستخدام مغرفة، لا أستطيع مجرد الاقتراب، لا أستطيع الوصول، بمعنى عند الوصول، عند تلك النقطة تحترق الكلمات إلى آخرها.

لم يكن أمامى إلا التزام الصمت، أختار الكلمات بقدر ما أستطيع من حرص، وكذلك النقاط المبهمةِ من الناحية العلمية، بحثت عن إجابة لها بنفسى داخل الكتب دون اعتبار للمصاعب، كنت أخاف من انتهاء النقاش مع بيير، أكثر من خوفى لأى أمر آخر، كنت أخاف من القرار الذى يحدد هل هذه النظرية تعتبر هرطقة أم لا، أنا الراهب المنتمى لجماعة الدومينيكان الشهيرة، أنا المتحمس للحفاظ على الدين، ....

لكن، هذا الاختلاط من جهة أخرى سمح لى بالتعرف على حياة بيير اليومية.

كانت حياة بيير ديوفاى اليومية منظمة بوعى كبير للغاية، وهى كما يلي: عند الاستيقاظ صباحا ، يبدأ الصلاة مباشرة، يليها بالاغتسال، ثم يحلق لحيته دون أن يترك ولو شعرة واحدة، ثم يبدأ ممارسة الصنعة، وفى تمام الساعة الثالثة يتناول الغداء، ثم يعود مرة أخرى لممارسة الصنعة، وعند انتهاء العمل يتناول طعام العشاء وبعد البحث والدراسة فى الكتب، يصلى آخر صلاة ثم ينام على فراش متواضع مصنوع من القش مرتديا ملابسه كما هى، وتتكرر هذه الأفعال كما هى فى دقة بالغة، ممكن أن نشبّهها بحركة

النجـوم، وهو يتناول الطعـام مـرتين فـقـط فى اليـوم ظهـرا وليـلاً، محتواه عبارة عن خبز أسمر متواضع من الشعير والشوفان مع فول وبازلاء فى الأغلب، ولا يحتوى على أى نوع من اللحوم إطلاقا كذلك لا يستعمل مكسبـات الطعم أو البـهارات، هذا كله اشـتـراه غيـوم وطبـخـه، فى مـقـابل توليـه هذا العـمل يبـدو أن بيـيـر يزيده على التكاليف التى غُش فى ثمنها الأصلى دون أن يعترض.

حدث أن تناولت الغداء مع بيير مرة واحدة فقط، لا أتذكر ما هى التـفـاصيل التى أدت إلى ذلك، لكن مـا زال مطبـوع فى ذهنى منظر غيـوم وهو ينظر لى بارتيـاب أثناء إعـداده مـائدة الطعـام لنا نحن الاثنين، إذ لم يكن بيـيـر يسـمح لأحـد بالاقـتـراب من مـائدة طعامه، وكان صـارما فى شـأن الطعام، ولم يكن غيوم يمثل استثناء من ذلك.

لا يتغيـر مـوقف بييـر المهيب حتـى عند تركه العـمل، يبدو أنه يعطى معانى هامة للغاية لفعل تناول الطعام، ونستطيع أن نرى ذلك من خلال التزامه فى صلاته قبل تناول الطعام، أو من خلال صمته أثناء تناول الطعـام، كـان يفعل كل حـركة ببطء شـديد معطيا لها ما يكفى من وقت، ويمـضـى قـدمـا دون أن يحـدث أى صـوت على الإطلاق، نسـتطيع هنـا رؤية الاخـتـلاط الـراقى بين الطعـام الذى أمامـه وبين الهدوء الذى يشبـه رهبة إنسـان أثناء تناول الطعام للمرة الأولى بعـد فـتـرة طويلة من الصـيـام، كـان هنـاك تحكّم بدنـى صـارم فى الشـهوات، لم يكن ذلك بواسطة الإرغام والتقـيـيـد أو التقليل من قيمتها، لكنه كان بالسمو بهذه الشهوات؛ لتناسب الإنسان عن طريق

إعطاءها المراسم والطقوس اللائقة، الأطعمة التى هى بالفعل أشياء تختلف عن بيير وخارجية عنه، كانت تبدو وكأنها اكتسبت فى سرعة، طبيعة مشابهة له حتى قبل دخولها إلى جسمه، ظاهرة التوحد هذه كانت أكثر ما تظهر وقت وقوف بيير أمام تنّور الخيمياء.

أذكر أن بيير بعد أن تناولنا طعام الغداء سويا فى تلك المرة الوحيدة تحدث إليّ من ذات نفسه على غير العادة، كان محتوى الحديث يتعلق بموضوع كيفية تولّد الشكل الطبيعى للذهب داخل مادة المعدن، أنا حزين؛ لأننى لا أتذكر تفاصيل حديثه، ولكننى بالتأكيد أستطيع وبشكل منفصل تذكر حكاية مشوّقة قالها بيير عن نفسه، ويمكن اعتبارها الشيء الوحيد تقريبا الذى عرفته عن ماضيه.

قال لى بيير إنه طاف فى شبابه البلاد محاولا معرفة سر حجر الحكماء، وفى وقت ما توظف فى وظيفة مدير فى أحد المناجم بضاحية قريبة من ليون، كانت الفترة التى قضاها فى الوظيفة قصيرة لا تتعدى بضع سنوات قليلة، لكنه قال إنه اكتشف عدة اكتشافات هائلة تتعلق بنظريات علم الخيمياء داخل الأنفاق التى كان يسير فيها على قدميه كل يوم، وقال أيضا : إن تأكده من حدوث تغير المواد إلى الشكل الفعلى للذهب أتاه فى ذلك الوقت.

ما سمعته منه كان هذا فقط، لكن بسبب ذلك أصبحت بعدها أبحث عن منبع شكوكى تجاه بيير فى هذا كله، مثلاً، تكاليف معيشته التى لا أقدر حتى الآن على الوثوق بها هى واحدة من ذلك،

ثم ضمن ذلك أيضا أفعاله الغريبة التى ستتضح فيما بعد والتى حاولت فهمها من خلال البحث عن «خيط أريادن».

كانت زيارتى لبيير فى الأغلب إما فى وقت ما من الصباح أو وقت العصر بعد انتهائه من تناول طعام الغداء، والسبب أن بيير كان يكثر من الخروج من المنزل بعد حلول الغروب.

فى بداية ترددى على هذا المنزل لم أعر بالا لذلك، كنت إذا جئت إلى المنزل ولم أجده أعتبر ذلك من قبيل الصدفة البحتة، لكن بعد معاودة التفكير فى الأمر قليلا أصبحت أعتقد أنه أمر غريب، وذلك لأن بيير رغم حياته المحكمة بقواعد صارمة، كما أوضحت منذ قليل، كان يخرج فى أى وقت دون ضوابط، وفى الأغلب كان يخرج وقتما يخطر ذلك على باله، فى أحد أوقات الغروب، تماما كما كان يوم قابلته أول مرة، صادفت بيير خارجا من داخل الغابة، الذى أدهشني، هو الإعياء الشديد الذى ظهر بوضوح على وجهه لدرجة لم أعهدها عليه من قبل، سألته مباشرة ودون وعى منى عن ذلك، لكن بيير لم يجب على سؤالى بشيء، ورغم ذلك واصلت كلامى وسألته عن سبب ذهابه إلى الغابة، وسبب سؤالى هذا الذى ينقصه بعض الحياء، هو أنى بالفعل كنت أبحث بلا نهاية فى شأن خروج بيير فى وقت الغروب، مما كان ينغص علىّ هدوء

قلبي، ليس هذا فقط، بل كنت قد سمعت شائعة تقول إن الشيطان يظهر فى هذه الغابة، لدرجة أن أهل القرية أحجموا عن الاقتراب منها، ولا أعتقد أن بيير لا يعرف تلك الشائعات، كنت أريد معرفة السبب الذى يرغمه على دخول الغابة رغم معرفته بذلك.

كما توقعت ظل بيير صامتا دون أن يغير ملامح وجهه، ثم بعد مرور فترة أجاب بكلمة واحدة فقط هى "من أجل المواد الأولية" ثم أغلق باب المنزل دونى.

خلال فترة من الوقت، حصلت أنا بهذه الإجابة على نوع ما من الرضا، المواد الأولية هذه تختلف اختلافا بسيطا عنها عند أرسطو، وهى تحمل معنى خاصا فى علم الخيمياء، وتظهر كثيرا فى كلمات بيير، وهو يرى أنها توجد منتشرة فى كل مكان، لذلك اعتقدت أنا أنه توجه إلى الغابة من أجل البحث فى طلبها، لكن تولّد الشك داخلى مرة أخرى، فمثل هذا السبب حتى لو شرح سبب خروج بيير من منزله، لكنه لا يتكلم أبدا عن فعله ذلك دون تخطيط، بالإضافة إلى أنه حتى لو كانت هذه هى الحقيقة، فلا أعتقد أنه لابد من الذهاب فى وقت الغروب، وأيضا أكثر من أى شئ آخر البحث فى طلب المواد الأولية للخطوة التالية قبل الانتهاء من العمل الذى يقوم به حاليا ، فى اعتقادى شيء لا يتناسب مع شخصية بيير بأى حال.....

لكى أصل إلى معرفة الحقيقة كاملة كانت هناك تفاصيل هى كالتالى.

حسنا، لقد حدث فى أحد الأيام ما يلي.

ذلك اليوم لم يكن فى نيتى زيارة بيير، وقضيت وقتا ما بعد الظهيرة فى غرفتي، لكن وخلافا لما كنت قد قدّرت، انتهيتُ مبكرا من قراءة الكتب، فتركت النزل فى وقت الغروب متوجها إلى منزل

بيير لأستعير كتابا جديدا .

كان سطح النهر يتلألأ داخل الضباب المريب المتساقط فوقه، بينما تنعكس عليه السحب التى تتدفق فى السماء وكأنها لحاء شجر منزوع وساقط، لم تغرب الشمس بعد، ولكن القمر كان بالفعل معلق فى السماء مثل بواقى الثلوج على الأسطح، ويُرى كوكب الزهرة كذلك فى السماء ناحية الغرب.

فى حديقة منزل غيوم على الجانب الآخر من النهر، كان جان لا زال غارقا فى اللعب تحت الفروع التى تضحك بابتذال استهزاءً بسبب اصطدامها بالحبل المعقود عليها، وكان وجه الصبى هذا اليوم أيضا ، عبارة عن فتحة معتمة لا صوت فيها مع اللسان الطويل الذى يخرج منها، وتُرى خلفه أشجار ذات أشواك وتُرى أيضا عدد من أشجار التفاح، وجّهت عينى فجأة إلى المرأة التى تقف بجواره، كانت المرأة أثناء إعطائها الطعام للحمام الذى تجمّع حول قدميها، تغرق الصبى بنظرات باردة مليئة بالحقد والشرور، كانت المرأة كما قال عنها أهل القرية، ذات وجه جميل عريض الجبهة، لكن هذا الجمال كان جمالا مبتذلا على نحو ما، ربما كان هذا بسبب فتحة الرداء الواسعة عند منطقة الصدر، التى اعتقدت أنا أنها رسالة تعبّر عن رغبة جسدية، توقف نظرى عند شفاه المرأة الغليظة، وتذكرت الحلم الذى رأيته منذ أيام قليلة، ثم أحسست فجأة بالامتعاض الشديد.

بعدها أسرعت الخطى مغادرا المنطقة التى أمام تلك الدار، وتوجهت على عجل إلى بيت بيير، بعد فترة من السير، رأيته من الخلف وهو يخرج من بيته متوجّها إلى الغابة، كدت أن أوجه له نداء، لكن بعد أن فكرت لبرهة من الوقت، أعرضت عن ذلك

وقررت أن أتبع خطواته دون أن أجعله ينتبه لي، رغم علمى التام بأن هذا الفعل شيء يجب أن يجلب الخجل والعار، لكنى لم أستطع منع نفسى من فعل ذلك، بالإضافة إلى أن الذى دفعنى إلى فعل ذلك وقتها، إحساس ما عميق سَرى فى جسدى كالدم بسرعة رهيبة.

بعد أن دخل بيير إلى الغابة من خلف المنزل بدأ السير فى اتجاه جنوب شرق وهو يلتفت حوله من وقت لآخر، تابعته أنا بعد أن تركت مسافة قصيرة بيننا، تحت الأقدام هناك طريق صغيرة رفيعة ربما بسبب وطئها عدة مرات ذهابا وإيابا ، تتبع بيير الضوء الخافت الذى يشع من لهب الشمع الذى يمسكه فى يده يريد الوصول لنهايته.

كانت الغابة بالفعل قد غرقت فى ظلام خافت، وعلى الأرجح هذا هو سبب عدم انتباهه لوجودي، كانت حشرات الزيز تزن والطيور تصيح، صدى هذه الأصوات أشعرنى أكثر بهدوء المكان وسكونه، أعلى رأسى مغطاة بكثافة بأفرع الأشجار، وأحيانا تسقط من بينها أشياء مثل ورق الشجر أو الحشرات، وأيضا أحيانا تأتى لا أدرى من أين، أشياء طائرة لا أستطيع تحديد هل هى نحل أم بعوض، عندها فكرت أنه إن كان المكان بهذا الشكل فلا عجب أن تشيع عنه مقولة ظهور الشيطان فيه، فهو أمر ليس معدوم السبب تماما ، فى ذات الوقت تذكرت أنى شاهدت من قبل خيالا لنيران ضخمة داخل هذه الغابة، عندها شعرت بقلق أعظم مما قدرت؛ لأنى دخلتها بهذه البساطة، اعتقدت واهما بوجود حُمّى فى وجهى.

بمعنى، كنت أحس أننى كالحطب المحروق لتوّه، وقتها نظرت إلى الأمام حيث النار المتوجهة، عندما رأيت ألسنتها تكاد تنطفئ، أوشكت على الصياح بلا وعى، كانت النيران قد التوت فقط.

أحسست بالعرق يتصبب من ظهري، لم يكن ذلك بسبب السير فقط، شعرت أن العرق النازح من نوع شيطانى على نحو ما؛ لأنه بعد أن يفيض ويسير فى العمود الفقرى للظهر يترك آثارا كأنها خط أسود من جرح صنعه مخلب حاد.

كان هواء الغابة وكأنه زفير لشخص ما قد انتهى بالفعل من استنشاقه، مما سبّب لى صعوبة حادة فى التنفس، هل هو ما يجب أن نطلق عليه ريح السموم؟ كلما تنفست أشعر بألم وكأن المرض يهجم على جسمى، بالطبع فكرت فى التراجع، لكن فى كل مرة كانت قوة مريبة أعجز عن التعبير عنها هى التى تحثّنى على الاستمرار، وأجدنى مدفوعا إلى التقدم نحو الأمام.

بعد السير لفترة، سمعت صوت عبور بيير للنهر، لا ريب أن هذا النهر هو الجدول المنساب الذى يقسم القرية إلى نصفين والذى سبق أن ذكرته، لكن إذا شئنا الدقة هو أحد الفروع الذى يتحد مع المجرى الرئيسى للنهر عند مدخل الغابة، وهذا ما عرفته فيما بعد، لقد استطعت بصعوبة عبور هذا النهر حريصا على ألا يصدر منى صوت، لم يبتل بالماء إلا منتصف قصبة الساق فقط، لكن وقتها شعرت أن برودة فى غير وقتها اجتاحت جسمى كله وكأنها تطهره.

كلما ذهبنا إلى العمق كلما زادت كثافة الظلام، لا أدرى إلى أى مدى تقدمنا، حتى إذا نظرت للخلف لم أجد إلا الأشجار المتدلاة كالشباك فى الظلام، أخيرا ، توقف الضوء أمام حائط من الصخر الجيري، ربما هذا هو سفح سلسلة الجبال الشرسة التى تُرى فى الجهة الشرقية للقرية، هنا أيضا التفت بيير برأسه عدة مرات؛ ليتأكد من المنطقة حوله، بعدها ارتفعت يده اليمنى، أضاءت النيران شقا لكهف فى الحائط الصخري، الشق الذى يشبه الجرح

الغائر كان مفتوحا فى شكل ماسة طويلة ورفيعة، كان عرض الشق يسمح بصعوبة بمرور شخص واحد فقط، وكان هذا المكان مغطى من كل الجوانب بشجر اللبلاب المتضافر، كان الشق من الداخل يسوده أيضا ظلام من نوع آخر، لكن عند النظر بإمعان بدا أن الشق يضيق كلما اتجهنا إلى العمق.

بدّل بيير بالشمعة القديمة واحدة جديدة طويلة، ثم أخرج من فتحة صدره باقى الشمع والثقاب وبعد أن تأكد منهما غطس فى بوابة الكهف رافعا النار أمامه.

أمّا أنا فخرجت من ظل الشجرة الضخمة التى كنت أختفى وراءها وتابعته بنظري، ثم أصابنى التردد مرة أخرى هنا، لم تتغيّر رغبتى فى ملاحقة أثر بيير، لكن ظلام الكهف وعمقه جعلنى أتوقف هنا الآن، أنه الخوف ولا ريب، لكنه لم يكن مجرد القلق النابع من الظلام المجهول، بل على العكس هو خوف نابع من تلك القوة المجهولة الموجودة هناك والتى تغرينى برفق، أو إن شئنا القول، هو الخوف النابع من شيء موحش يملك حنانا من نوع ما، كنت كلما أحاول الهرب من ذلك كلما أجد نفسى أزداد رغبة فى الذهاب إلى العمق أكثر وأكثر.

ثم فى النهاية لم أقدر على المقاومة.

لا أدرى لماذا أحسست بالشوق إلى النار التى ابتعدت وصغرت فى الأفق، ثم تابعت أثرها بلهفة، فقط تابعتها، وجدت نفسى وقد أصابنى الدوار، وأن اللهب والظلام يبعدان بعيدا عني، ثم وكأنهما يهجمان عليّ؛ ليطفآنى معهما ويهربان، وأنا أنظر إلى ذلك، ...، ثم بلا وعى وجدت قدماىّ تتجهان نحو ذلك.

بعد مرور فترة، عاد إلى الوعى قليلاً.

كان الهواء داخل الكهف رطبا وباردا.

بعد أن اجتزتُ الطريق الضيقة الطويلة والمنحنية بكآبة، وصلت إلى مكان واسع من الطريق وذى سقف عالٍ، لم أكن قد فقدت أثر بيير بعد، شعرت لذلك بالاطمئنان قليلاً، كان مدخل الكهف بالفعل قد أصبح بعيدا جدا ، وحتى عند النظر من هنا لا نستطيع رؤيته ولو ظله، انقطع الضوء الخارجى تماما ولم يعد يصلنا، أمّا ما يُنير داخل الكهف فهو فقط ضوء اللهب الذى يرفعه بيير بمفرده، الأماكن التى تضاء قليلا بواسطته هى الوحيدة التى أعرفها مما يوجد حولي، أمامى وفوق رأسى أستطيع رؤية الحائط الصخرى الذى يشبه شلالا تجمّد وصار ثلجا، شكله الذى يبدو بعد أن التوى التواءة كبيرة، وكأنه يحاول السقوط إلى الأرض فى حركة واحدة وسريعة، جعلنى أعتقد أنه ألغى وقت التكوّن الأصلى البطئ، وكوّن شكلا لحظيا سريعا ، صوته الضخم ابتُلع داخل التيار، والتيار أيضا اختفى فى الصمت المدوّى للصخر العاجى اللون، وكأنه يهتز ضاربا القاع، الحائط الصخرى متوزع على اليسار واليمين بالتساوى، أمّا الوسط فلا يرى منه إلا الظلام فقط، لا أعرف شيئا عن الآتى

الغامض، من ناحية أخرى، لا يصل أغلب الضوء إلى موضعى، علاوة على ذلك، تساقط الرواسب الكلسية السريع، يجعل الأرض تحت قدمى منبعجة ووعرة بشدة، وكان عليّ أكثر من مرة الاستناد بكلتا يدى على الأرض لكى لا أقع.

الغريب أنى وقتها اقتربت دون أن أنتبه من بيير محاولا الحصول على الضوء، بل أن قدمى اصطدمت بحجر، ودوى صوت ضخم داخل الكهف، ومع ذلك لم يلتفت بيير للخلف حتى النهاية.

لا أعتقد على الإطلاق أن بيير لم يشعر بكل ذلك، ولكنى أيضا لا أعتقد أنه كان شاعرا بذلك ويتظاهر بالعكس عن عمد، ما هى حقيقة ذلك بالضبط يا ترى؟

هل هو فعلا لم يحس بي؟ أم هل كان بيير أيضا مثلى تماما منساقا لقوة ما لا يستطيع مقاومتها؟ فوجد نفسه مضطرا إلى التقدم إلى الأمام وإلى العمق، ....، المفروض أنه بعد وصوله إلى هنا متخفيا عن عيون الناس إذا شعر بوجودى أن يبعدنى على الفور، لا بل أليس من المنطقى التفكير أنه شعر بوجودى فعلاً؛ لأنه كان يتحرى الانتباه إلى هذه الدرجة؟ ...، هل فعلا شعر بي؟ هل هو رغم إحساسه بوجودى تعمد ألا ينظر للخلف أو يكلمني، حتى يرشدنى إلى هنا بطريق الصدفة؟ ....

ثم على أى حال لقد تم إرشادى إلى هنا بالتأكيد.

إلى هنا كنت فقط أسير للأمام حسب ما يتجه بيير، دون وعى بما حولي، لكنى كنت أعلم فقط أننا تعمقنا إلى مسافة عميقة تحت الأرض، كانت الطريق تنحدر إلى أسفل بشكل طبيعي، علاوة

على ذلك فى منتصف الطريق كانت هناك عدة مرات درجات سلم بارتفاع قدمين أو ثلاثة أقدام، اضطربت أنفاسى قليلاً، كانت الطريق الواسعة التى مررنا بها فى السابق تضيق مرة أخرى، كنت قد مشيت لوقت طويل جدا بالفعل، الماء المتساقط من السقف المنخفض يبلل فروة رأسي، والمجرى الرفيع لمياه النفق الجوفية يبلل أسفل قدمي، يتردد داخل الكهف الهادئ صوت قطرات الماء النازحة من الحجر بانتظام مثل دقات القلب، العرق أصبح باردا وأحسست بلسعة برد شديدة، لا زال بيير يتجنّب النظر إلى الخلف، خطواته غير مضطربة، فقط يتوقف بعض الأحيان قليلاً؛ لأن نار الإضاءة على وشك الانطفاء.

أثناء السير أخذت أفكر فى مفترقات الطريق الذى اخترت إحداها منذ قليل، ثم أحسست فجأة بالعزلة، لقد اخترت دون أن أجعل لها أى علامة طريق، بل أنى لا أتذكر حتى عدد ما مرَّ بى منها، بالطبع لن يفيد الندم الآن على هذه الأخطاء البلهاء، لكنى عندما انتبهت لذلك لأول مرة دخلنى شك فيما إذا كنت سأستطيع العودة حيا من هذا المكان.

... بعد ذلك وصلت إلى مكان زاد فيه مجرى الماء كثيرا ، وكانت الطريق تتسع تدريجيا ، يُرى فى المقدمة ضوء خافت، ضوء ضعيف ودقيق مثل الذى تطلقه أنواع معينة من الحشرات من ظهورها، لقد ظننت أن ذلك ضوء الشمع، لكن يبدو أنه كان شيئا آخر.

كان الضوء يغطى المنطقة هناك بشكل غامض.

بعد أن اتّسعت الطريق شيئا فشيئا أصبحت كهفا مفتوحا واسعا، لا زال السقف على مدى ما تسمح رؤيتى غارقا فى الظلام،

مع الضوء الخافت الذى يصعد من القاع، يُرى عدد لا نهائى من الرواسب الكلسية تتدلى لأسفل طافية فوق السقف، فى أسفل القدم ماء لا حدود له يُغرق المكان، ويقطع صفحته أحجار كلسية أو على وجه الدقة أحجار كلسية ممتدة، بعضها تجمّع بالفعل مع بعضها البعض وكوّن عمودا واحدا ، من شكلها يمكن معرفة قديمها من جديدها؛ لأن الجديد منها يكون رفيعا وكأنه مخنوق إلى الداخل، أكثر الأنواع قدما شكلها مشوّه، وأصبحت وكأنها جبل صغير متجمع، ولكن نجد أيضا أن هناك رواسب كلسية غطست فى قاع الماء كما هي، وتضخمت الرواسب الكلسية فقط متعملقة فى أعلى السقف، ثم الآن، انعكست جميعها على صفحة الماء التى كانت وكأنها مرايا لامعة فى صمت كالسراب.

سطح الحائط الأبيض الذى رُوِى بقطرات ماء الحجر، تلوّن باللون الذهبى بسبب الضوء وتناقص إلى العمق بسبب الظلال.

فى منتصف قطرات الحجر هائلة العدد يوجد عمود حجرى متفرد، ولافت للنظر بشكل كبير، منبع الضوء على ما يبدو هو ذلك العمود، لكن هذا المنبع مختف تماما خلف ظل بيير، أنا الذى ظللت واقفا خلف بيير لم أر مصدر الضوء لفترة من الزمن، نظرت إلى مكان أهرب إليه من تأثير ظل بيير، أى مكان يراقب المنطقة المحيطة بمنبع الضوء.

كان هو على النحو التالى:

أعمدة الرواسب الكلسية كانت تمتد مباشرة إلى أعلى، بعد أن ترتفع إلى حوالى الربع كانت تضيق مرة، ثم بعدها تنتفخ بنحو كبير، وترتبط على هذا الحال مع الطرف بهدوء، الرواسب الكلسية

المقابلة أيضا تتخذ نفس الشكل تقريبا ، طول كل منها قد تصل إلى ثلاثة أضعاف طول الإنسان، اثنان من الرواسب الكلسية وكأنها حقا تتلامس وتحاول الانصهار معا ، كانت تحتفظ بينها بفتحة صغيرة لا تزيد عن إصبعين اثنين، الفراغ كان يلمع فى بريق وجوده ويصقل هذا الوجود؛ ليتفاقم القلق أكثر من الوجود.

القاعدة التى تحمل الرواسب الكلسية كانت كالشمع المتساقط ذائبة تصنع موجات متجمدة، اختلست النظر إلى ما فوق الماء بقليل من الجرأة، كان السطح من منشأ الأعمدة إلى سطح الماء مغطى تماما بورد بلدي، بالطبع داخل الكهف ليس من المفروض رؤية زهور، لكن الورد كان متفتح بغرابة فى هذا المكان فقط، كانت كل الزهور شكلها فى لحظة التفتح وحمراء اللون كأنها سطح قطعة من اللحم تم قطعها حالا فى تلك اللحظة، تفوح فى المكان رائحة الزهور العطرة؛ لتُنبئ بلحظات تفتحها المقبل، ثم فوق هذا كله يتدلى الضوء الخافت كما لو أنه حجاب لها ....

كان هذا بحق ضوءا عجيبا ، بعد لحظات، استعدت هدوئى قليلاً، ثم أسلمت جسدى للحائط الذى بجانبي، كان من أسباب ذلك هو محاولتى التأكيد بعينى من مكان صدور الضوء، حسنا ، نظرى الآن يتحرك بالعرض، أخيرا ظهر لى منبع ذلك الضوء.

حتى لو اعترض أحد على ما سأذكره فيما يلى أو بشكل أوسع على كل ما سجلته حول هذا الكهف وقال عنها إنها لا تزيد عن كونها خيالات، فأنا على العكس لن أُسفّه قوله، لا شك فى أن ما رأيته حقا رأيته، لكن فى النهاية إذا قيل إن الأمر لا يزيد على أنى رأيته، بالطبع سأقع فى حيرة كبيرة لذلك، أو كان الأمر كما يقول

أهالى القرية إن الشيطان يسكن داخل الغابة، وقوبلت بالسباب وكأننى أيضا اختلت قواى العقلية بسبب سحره، سأتقبل ذلك وأقر به ولن أمانع أن أقف أمام الرب لأعترف بضعفي، على الرغم من ذلك، فإننى إلى حد بعيد أتمنى ذلك، بدلا من التفكير أن ما رأيته فى هذا المكان هو من موجودات هذا العالم.

رأيت ذراعا فوق العمود الحجرى العملاق، رأيت ثديين، رأيت وجها يتدلى منه العنق، يُرى فى الوسط عضو الذكورة، لا يرتدى أية ملابس مطلقا ، فقط على الرأس يرتدى تاج مختلط فيه ثعبان مع أشواك نباتية بشكل مُعقّد، النبات به ورود كتلك التى أسفل القدم تتلألأ بلون أحمر فاقع، وهى على ما هى من عدم تفتح، الثعبان يلتف لفة حول الرأس ثم ينعقد فوق الجبهة وهو يعض بنفسه على ذيله، ما تحت الركبة وما بعد المرفق مدفون داخل الصخر والظهر أيضا على ما يبدو ملتحم بالصخر، عند النظر بدقة فى الفتحة ما بين الذراع والبطن وأيضا الفتحة بين القدمين نجد أن الصخور تتغلغل بينهما.

أستطيع أن أرى ما يشبه العصا عليها الكثير من الزينات تصل إلى العنق بعد أن تخترق الجسد، داخلة من فتحة الفرج الذى يفترض وجوده على الأرجح هناك خلف الخصيتين، على هذه العصا أيضا يوجد أشواك وثعابين متلاحمة معا، لكن فى هذه الحالة عبارة عن ثعبانين يعض أحدهما ذيل الآخر، طرف العصا التى نفذت من العنق ظهرت فى شكل يشبه السهم، وكأنها أصبحت جزءا حادا صغيرا من العمود الحجري، فى المقابل، تُرى رسومات دقيقة مزركشة أكثر تعقيدا فى نهاية الجزء الآخر النازل من فتحة

الفرج، فى الطرف توجد كرة صغيرة فى حجم بيضة الدجاجة، ويُرى علامة فوقها تجمع بين الدائرة والماسة، كانت داخل الدائرة مفرغ بالطول على شكل بيضوي، وكانت الماسة تلتصق بالشكل البيضوى بحيث تلامس قممها الأربعة الحواف، وداخل شكل الماسة أيضا ، كلما اقتربت القمتين على اليمين واليسار زاد سُمك اللحم واختصرت إلى خطين أفقيين متقابلين، ومفرغة إلى ماسة بلا زاويا، كل هذه الأنواع من الأشكال، تتفق فقط فى نقطتى القمة والقاع، ويخترق هاتين النقطتين خيط واحد ممتد من العصا.

أما الجسد، فكان يحتوى على جمال منقطع النظير كما هو واضح للعيان تماما من الثدى الغنى الناضج، كما أنه مجهز أيضا بالقوة والصلابة الظاهرة كالشمس فى الكتف ومنطقة البطن وتتحكم العصا الواحدة فى هذين الصفتين المتناقضتين بتوازن خطر وهى التى تلصقهما معا ، عضلات الجسم بالكامل مشدودة بعنف، كان الجسد وكأنه حقا يحاول فى تلك اللحظة الخروج مولودا من قلب الصخر، وأيضا كأنه يحاول مقاومة ابتلاع الصخر له، لكن من جهة أخرى، الصراع مع الدهون المتركزة فى الثديين يهدئ من حركة تلك الرغبة القوية، العضلات التى تتفجر غضبا تم السيطرة عليها بواسطة الدهون، فهى تتوقف عند «ما قبل التحرك» بخطوة واحدة؛ لأن الدهون بالدرجة الأولى ترغب فى الوقوف والسكينة.

يمكن رؤية هذا الصراع أيضا من ملامح الوجه، حيث لا يمكن الحكم هل الجفون مقفلة بسبب الألم أم بسبب النوم؟ توحى التجاعيد التى تسطع بين الحاجبين بالحزن كما توحى أيضا

بالسعادة، ليختفى هذا اللغز إلى الأبد خلف خط الأنف المستقيم النافر، منطقة الجفن السفلى مشدودة، وخط الفك المائل لا يتوقف كأنه فاكهة استوت أكثر مما يجب، الشعر الذى يحاول غزو كل ذلك وتغطيته، يشبه قطيع من الزواحف وكذلك أيضا يشبه الماء النقى الذى يتساقط من الجرة.

وكل ذلك يتلألأ فى لون ذهبى.

أقلعت على الفور عن الشك فى أن يكون تمثالا صخريا ، ذلك لأننى وبدون أى دليل شعرت حقا أنه كائن حى، لو كان الأمر كذلك فما هو يا تُرى؟ هل هو بشر؟ ربما كان كذلك، لكن حتى لو كان بشرا، فهو ليس ذكرا وليس أنثى، وفى نفس الوقت هو ذكر وأنثى، على هذه الحالة هل من الممكن أن أدعوه بشرا ؟ بعد ذلك فكرت كما يلى:

أليس من الممكن أن يكون هذا الشيء المقيد فى الصخر هو "الهومونكولوس"، القزم الذى نسمع عنه فى الأساطير والذى صنعه الإنسان بواسطة الخيمياء؟ ربما يكون هذا الحديث منطقيا إلى حد ما، لكن، بعد تفكيرى هذا، تتابعت تخيلاتى أكثر وأكثر، ووصلت إلى أن فكرت أنه ربما هذا هو النجم الساطع ابن الفجر الذى سقط من السماء، الملاك الساقط نفسه، الذى ضُرِب بالصواعق الإلهية، لكن، لم أؤمن أنا بذلك، إن الشيطان ليس بهذا الشكل الرائع والجميل، إذا كان الأمر كذلك فهل هو ملاك؟ ....

لقد شعرت بدوار؛ لأن الضوء الذى يشع فى المكان ضعيف للغاية، وهو أضعف من أن يكون نورا للبركة الإلهية، ثم الجسد على نحو ما غير كامل بالمرة، ويبدو كأن هذا الجسد يتفادى بصعوبة تفككه حيث تتنافر خصائصه بعنف، وتحاول الانفصال فى التو.

هذه الخنثى «أندروجينوس» كانت بالتأكيد ذات شباب يحمل حكمة ونبوغ من نوع ما، لكن هذا الشباب على الأرجح هو شباب حصلت عليه نتيجة النمو الجمادى المتأخر على مدار مئات أو آلاف السنين، إذا شئنا القول هو شباب نتج من كبر السن، السبب هو لأن وضوح المكان الذى يظهر فيه يقترب من وراءه حقا الاختفاء، صعوبة حل مشكلة الاختفاء هى بلا شك أحد أنواع الضعف، ثم أن الضعف يعنى كبر السن، فى الأصل الشباب من طبيعته أن يقف على حدود السطح، ولكن لأن هنا لا يوجد جانب خلفى فهو يتعمق فى الجانب الأمامي، بمعنى أنه تجسّم سطحى لا نهائي، ومهما حاول التغلغل إلى الداخل بأى شكل كان، فغاية ما يصل إليه هو المكان الذى ينبغى أن يكون مثل السطح العادي، هذه البساطة ذات القوة المتينة، لكن يا لها من شىء هش، تماما مثل ما يكون الذهب النقى أكثر هشاشة من الذهب المخلوط، لكن، جسد الخنثى الموجود أمام عيني، على العكس من ذلك تماما ، هو عبارة عن تكونات نشأت بالضبط من تراكم الكبر عبر السنين، وبسبب ذلك، أن الشباب نفسه يتكمل، الكبر يسبق الشباب وفى نفس الوقت نفسه لا يستمر بعده، بعد الشباب لا يوجد غير الشباب ذاته، كبر السن هو ذاته عملية تؤدى فى النهاية إلى اكتمال الجسد الشاب...

حولت عينى ونظرت إلى بيير.

كان بيير الذى ظل ساكنا بجوار الماء يتأمل ذلك الشيء، عندما نظرت إليه كان قد بدأ يتقدم إلى الأمام تلقائيا ، كانت قطرات الرواسب الهائلة العدد التى تنعكس على صفحة الماء قد تكسرت وانتشرت كأنها قطع من زهور الكركم يتم حرقها بالنار، اهتز الكهف بسبب ظلال هذه

الموجات، الماء المنخفض كان لا يبلل إلا فقط ما فوق الركبة بقليل.

عند الوصول إلى العمود الحجرى الرئيسي، وطأ بيير الورود مقسما إيّاها، ثم وقف أمام الإنسان الصخري، فأخذ يتأمله بحرارة من الركبة المدفونة فى الصخر واصلا إلى الرأس المتدلية على العنق.

تردد صدى تنهيدة أسى صغيرة، لم أستطع رؤية ملامحه، أخيرا دفع بيير ذراعيه المرتعشتين ثم بكف يده أبعد الشعر بهدوء ثم لمس جبهة الخنثى، بعدها أبقى الإبهامين فقط فوق الوجه، وزحف بباقى يديه الاثنتين ببطء على حواف الفك الأسفل، وأخفى باقى الأصابع تحته، ثم استمر، أصابع الإبهام المتبقية تحركت بداية من حواف الأنف لامسة أعلى الشفاه ووقفت عند طرف الفك، لم تتوقف اليد، بل استمرت زاحفة نحو العنق ثم لمست الكتف، ثم داعبت منحنيات الثدي، وجرت على الحقو واصلة إلى العضو الذكري، دفع بيير بشفتيه واضعا إياهما على جانب الثدى وهو ما زال ممسكا بالعضو الذكرى بيده، ثم انحنى وهو على تلك الحالة ليقبّل العضو الذكري، ثم بحث خلف الخصيتين؛ ليتأكد من الفرج، ثم سحب يده ليضع الجزء الذى لامس الفرج على فمه.

أمام الجسد الجميل البارد، أنهى بيير هذه الطقوس باحترام، قطرات الماء التى تنزل من الرواسب الكلسية الموجود فى الأعلى، سقطت على كتف الخنثى بعد أن مرت بالصخر، ....

أحسست بالعرق يبلل ياقتى، ليس فقط بسبب شدة التوتر، ولكنه أيضا بسبب درجة الحرارة العالية داخل الكهف، منذ الدخول من بوابة الكهف حتى الوصول إلى هنا، لم أشعر على الإطلاق بأن الجو حار، بل لقد أحسست برعشات البرد.

منذ أن رأيت هذا الصخر العملاق أصبحت أشعر تدريجيا بالحرارة فى جميع أنحاء جسمي، وصل الحال فى وقت ما أن شعرت بحمّى لا يتوقف معها العرق، رغبت فى تنفس الهواء الخارجي، كانت هذه الحمّى تسبب لى معاناة فى التنفس، إضافة إلى إحساس بشوق عجيب، كانت تشبه بالضبط حرارة الجسد.

بعد أن ترك بيير العمود الصخرى عاد ووقف مرة أخرى فى الماء، ثم بعد أن أخرج من صدره شمعة جديدة، أشعلها من النار المتبقية.

نظرت إلى ذلك بلا تركيز وأنا أحاول أن أفتح الياقة ولو بالقوة، فى ذلك الوقت عادت للحياة فى داخلى الكلمات التى حكاها جاك عن طقوس الساحرات، كنت عادة أسمع ما يقوله جاك ذو الأفق الضيق بلا اكتراث، لكن بقى فقط فى ذاكرتى ما حكاه عن طقوس تدنيس الرب الليلية بسبب غرابتها، لن أحكى هنا بالتفصيل عن محتواها المقزز، الذى أريد تسجيله هنا شيء واحد، هو أنهن فى بداية الحفل الطقوس كُنّ يُقبّلن مؤخرة الشيطان وبذلك يُسمح لهن بالمشاركة فى الحفل الليلي، بالطبع داخل الكهف لم يكن هناك غيرى أنا وبيير وتلك الخنثى، ولم يكن هناك ما ينبئ على أن حفلا ليليا سيقام، وحتى لو افتراضنا أن هناك حفلا، فلا أعتقد أن بيير سيشارك فى حفل أبله كهذا، لقد قبّل بيير الثدى والعضوين التناسليين، ولكنه حتى النهاية لم يقم بتقبيل المؤخرة، ..، ولكن ورغم ذلك وجدت «علاقة ما» بين ما فعله بيير وبيَن ما يُسمى طقوس الساحرات مما جعلنى أنتفضُ هلعا ؛ ذلك لأنه بدا لى وقتها أن بيير يشارك بالتأكيد فى أمر ما ليس من عالمنا.

كانت ظلال اللهب الرفيع الذى ينير الظلام تتراقص على وجه بيير الشاحب، وتتدفق مع بقايا الإرهاق نبوءة كبيرة وقوية بالبعث من جديد.

مر بيير بجانبى وبدأ طريق العودة، جاءتنى رغبة فى البقاء هنا وفحص هذا الذى لا يمكن معرفة هل هو رجل أم امرأة؟ أو هل هو إنسان أم حيوان؟ هل هو شيطان أم ملاك خادم للرب؟ لكنى أقلعت عن تلك الفكرة؛ لأنه يجب على فى كل الأحوال الخروج من هنا بأسرع وقت ممكن، لا أعرف سبب ذلك، فقط بلا أى تفكير، أحسست أنه إذا تأخرت ولو للحظة بسيطة فى الخروج من هنا، لن أستطيع الهروب من هذا المكان مرة أخرى.

عندما وصلت أخيرا إلى بوابة الكهف، كان الوقت قد أصبح ليلا بالفعل، خرج الظلام من تحت الأرض زاحفا على الغابة العملاقة، ليشكّلها كيف يشاء، اختفيت وراء ظل الصخور منتظرا ابتعاد ضوء شمعة بيير عن نظري، كان قد عاد إليّ الوعي، لا يجب التسرع على أية حال، على فرض أنى فقدت طريقى فى الغابة فلن تكون مشكلة ذات بال، هل سينظر بيير يا ترى هنا إلى الوراء؟ عندها بلا شك سيكتشف وجودي، هكذا كنت أحذّر نفسى ....

من قاع السكون راقبت أشعة الضوء وهى تذهب بعيدا .

تدفق الهواء البارد من ظهري.

وفوق رأسى يتردد صوت الطيور المتقطع، وكأنه يخدش غطاء السماء.

الليل يطلق زفرات دافئة وثقيلة، وكأنها زفير وحش نائم.

منذ حوالى أيام قبل وبعد ذلك اليوم بالضبط بدأ ينتشر فى القرية مرض غريب يسبب حمّى مزمنة، ظهرت أول حالة وفاة بعد يومين اثنين من عيد القديس يوحنا المعمدان، فى اليوم التالى توفى شخص آخر، وبعد مرور يومين توفى هذه المرة ثلاثة أشخاص دفعة واحدة.

أطلق أهالى القرية على المرض اسم مرض لهب القديس «أطوان»، لا أدرى حتى اليوم ماهية هذا الوباء الشهير اسما فقط، لذلك لن أناقش مدى صحة التسمية، لكن على كل الأحوال، فقد هجم هذا المرض الغريب على القرية هجوما يمكن مقارنته بما نراه فى القصص وفى لمح البصر ابتلع العديد من أجساد الناس.

- امتد المرض إلى الحالة النفسية أيضا، أهل القرية بالفعل كانوا يعانون من الفقر القاسى بسبب استمرار البرد القارس لفترة طويلة، ثم بدأت تنتشر بينهم فجأة وعلى حين غرة تلك الحمّى الغريبة.

وبدأت تقع فى كل أنحاء القرية مشاحنات عقيمة، وبدأت حفلات السكر الليلية تصبح جنونية، وكثر تنقل البغايا من سرير

إلى سرير، كان الأهالى كمن يحاول أن يتناول نِصاب العام الكامل كله من الخمر فى جرعة واحدة، ومن جهة أخرى، استيقظ الإيمان داخلهم بشكل متكالب، فتوافدوا بلا انقطاع علينا، أنا وجاك، بعد ظهور أول حالة وفاة، زاد كل ذلك، الإيمان والعربدة، بشدة وكأنه فيضان بعد انهيار سد.

أصيب أهل القرية بالرعب نتيجة تذكرهم طغيان وتفشى مرض الطاعون فى السابق، وهكذا تضخمت الذاكرة المرعبة متغذية على قلق الناس وخوفهم، - ولذا وبسبب تلك الحيرة كان عليهم أن يطلبوا الراحة فى شيء آخر.

بدأت فى ذات الوقت، وقت انتشار الحمّى الغريبة هذه، تنتشر فى القرية شائعة ما، وهى كما يلى، يقال إنه يظهر كل يوم فى وقت الغروب عملاق فى السماء التى صُبغت بلون ضبابى من ناحية الغرب، عرفت أنا محتوى الشائعة بعد أن جمعت كلمات الناس الذين شاهدوا بالفعل هذا العملاق، كانوا يستخدمون كلمات كثيرة جدا فى محاولة لوصف ذلك العملاق، كان فيما يقولونه أشياء يصعب تصديقها فعلا، لكن رغم ذلك كان هناك إجماع فى نقاط عدة مما يوجب العجب، أولها، تأكيد وإصرار أهالى القرية على ضخامة حجم العملاق، على حد قولهم، لا يمكن رؤية عرض قدم واحدة من أقدام العملاق دون الالتفاف بالرأس يمينا ويسارا، وإن شعر جسده كأشجار الغابة، وإن السماء تقع عند نصفه الأسفل أمّا النصف الآخر من أعلى خصره فهو مختفى بعيدا فى السحاب، إضافة إلى شيء آخر هو أن العملاق يظهر دائمًا على شكل

جسدين لذكر وأنثى ويتضاجعان بعنف كالوحوش فوق التلال البعيدة، كل من شاهد هذا، لا بد وأن يقول إنه سمع وقتها ضجيجا كصوت الأعاصير.

قبل انتشار هذه الشائعة بين الناس، حكت لى امرأة فى اعترافها ما يلي:

- «...، ما هذا الشيء المريع الذى شاهدته؟ كانا اثنين، بل ...، يتضاجعان من الخلف!»

لم أستطع التأكد بنفسى من ذلك، لكن كان للشائعة بقية، ولقد جريت أنا ذلك بنفسى، وهى أنه كلما يظهر هذا العملاق لابد وأن تتبعه أمطار شديدة، تبدأ الأمطار بعد غروب الشمس مباشرة وتستمر تهطل طوال الليل يصاحبها أصوات رعدية، وتتوقف الأمطار فجأة عند شروق الشمس، بعد ذلك يتلألأ قوس قزح فى السماء الشرقية الملبدة بالغيوم التى تحجب ظهور شمس الصباح عن سماء الشرق.

ولقد شاهدت بنفسى قوس قزح هذا مرارا فى الصباح بعد ليال أقضيها غارقا فى الأفكار، يبرز القوس متألقا فى الآفاق عملاقا جميلا، غامرا بالإشعاع، معتزا بقوته المهيبة، حنونا، روحانيا، ما رأيته هنا، لم يكن إلا علامة للعهد الذى تبادله الله مع جميع مخلوقاته على الأرض، تغلغل الوباء مع مرور الأيام إلى كل مكان فى القرية، وتزايد عدد الناس الذين شاهدوا العملاق أكثر وأكثر، وحدث فيضان للنهر بسبب الأمطار الشديدة، يتطلع الناس إلى السماء التى صفت أخيرا، بشيء من القلق والغضب المحمل بالازدراء، ثم بالضبط فى ذلك الوقت يظهر أمام أعينهم قوس قزح ثابتاً.

يا للرعب الذى سيطر علىّ مرات عديدة وأنا أرى هذا المشهد، الرعب من تلك القوة التى تستمر محتفظة بصمتها الهائل، بينما تُظهر فقط علامات العهد الأبدى، مع إلمامها التام بالشرور العديدة التى نتحملها نحن!

فى يوم من الأيام أوقفنى يوستاس بجوار الكنيسة، كان كعادته يبدو كسولا مهملا لواجبه، ثم وجّه لى الحديث وهو يبتسم فى برود:

- «هل أنت أيضًا تذيع بين أهالى القرية هذا الكلام الفارغ عن عمل الساحرة؟»

لكننى لم أفهم ماذا يعنى، تابع يوستاس كلامه قائلا:

«أسألك هل أنت أيضا ترعب أهالى القرية بالقول إن ما تلاقيه القرية من أحداث غريبة مؤخرا سببه الساحرات؟ ....»

عرفت من خلال كلام يوستاس ما يلى، منذ عدة أيام يواظب جاك على إقامة الوعظ فى الكنيسة، ويقول فى وعظه إن البرد القارس، والأمراض والأوبئة، والسيول إلخ، كل ذلك سببه سحر الساحرات، ولم يرتاب الناس فى ذلك، ولقد تضاعف عدد من يأتى لسماع الوعظ حاليا عما كان عليه فى السابق، يقول جاك لهم: إنه لا يوجد أى شك فى وجود ساحرة فى هذه القرية، ويجب عليها الكشف عن هويتها بنفسها، والندم على هذه الذنوب العظيمة وإلا سيتعاظم الذنب أكثر وأكثر وسيضاف على ذنب الهرطقة ذنب آخر هو التبلد والعناد.

وأعطى جاك مهلة لذلك عشرة أيام، ويبدو أن ذلك كان يوم أمس.

أمام كلام يوستاس أظهرت اندهاشى له ولكنى آثرت أن لا أبدى شكا نحوه، فالحقيقة أنه لم يكن فى كلام يوستاس أى كذب، لم يمر وقت حتى أحسست بقدر من المسئولية فقصدت مقر جاك، ربما يكون سبب قرارى مناقشة جاك محاولا إقناعه بخطأ

ما يقول، هو سِباب يوستاس لى قائلاً: "Domini Canes" كلاب حراسة"، لكن من ناحية أخرى كانت أيضا هناك حقيقة، هى قلقى على أهالى القرية، وأيضًا كان هناك إحساسى بالخوف على بيير، فحتى لو لم أعرف محتوى وعظ جاك، فقد سمعت بالفعل من الكثيرين شائعة تقول إن بيير بالذات ولا أحد غيره هو المقصود بالساحرة.

....، لكن هذه المحاولة لم يُكتب لها النجاح، لم يلتفت جاك إلى حديثى مطلقا، فقط ظل يكرر ويعيد نفس الرأى عن الساحرات، محتوى الكلام قد زاد غموضا عن ذى قبل، ومع ذلك عند مغادرتى أضاف قائلا لى ما يلي:

- «أعتقد أنك أيضا تفهم ذلك، يجب ألا ترتبط بهذا الرجل أكثر من ذلك، ....، أنا لا أشعر نحوك بالكراهية، وأريد أن أتفادى بأى طريقة توجيه تهمة الهرطقة إليك.»

أحسست بالامتعاض مما احتوته هذه الكلمات من لهجة تهديدية، لذلك بعد أن غادرت مقر جاك، أسرعت على الفور الخطى إلى منزل بيير، وكأننى أتعمد خيانة جاك.

كان بيير بدون أى تغيير على الإطلاق، غارقا كعادته فى صنعة الخيمياء، هذه أول زيارة لى لمنزله منذ اليوم الذى توجهت فيه إلى الكهف، دخلت المنزل بعد أن ذكرت سببا ما للزيارة، كان بيير صامتا.

بعد أن جلست على المقعد فى داخل المنزل هدأت أنفاسى قليلا، عندها، لم أعد أدرى بالضبط لماذا جئت إلى هذا المكان؟ لا شك أننى كنت أحاول إبلاغ بيير بشيء ما، لكن ما هو هذا الشيء؟ ....

نظرت إلى بيير نظرة خاطفة، ليس فى هيئته أى اختلاف عما كان عليه فى العادة، سألت نفسى هل يا ترى يعلم بيير أصلا بشبهات الهرطقة التى تحوم حوله؟ فى حالة عدم معرفته شككت إلى أى مدى يوجد معنى لأن أخبره أنا بها؟

هل سيتخلى بيير عن تجاربه لو علم بتلك الشبهات؟ أبدا، لا يوجد أى احتمال ولو ضئيل لحدوث ذلك، إذن أليس الواجب عليّ أن أنصحه بمغادرة القرية؟ إذا كان وصول بيير إلى هذه القرية مجرد صدفة فى نهاية مشوار طويل فى الحياة، فالخروج منها فى رحلة أخرى أمرا لا يتطلب قرارًا صعبًا.

... إذن ما هو يا ترى السبب الوجيه الذى أستطيع به نصح بيير بذلك؟ أصلا إذا اعترض هو على كلامى قائلا، "ما هى الهرطقة فيما أقوم من تجارب؟"، ماذا عسانى أجيب؟ .. بالطبع منذ زمن وأنا أشعر أن ذلك هرطقة بالفعل، ولم يتغير هذا إلى الآن، رغم ذلك، مجيئى له هنا الآن دون النظر إلى موقفى أنا شخصيًا سببه أننى لا أعتبر بيير مجرد زنديق يجب احتقاره، وسببه أيضا أننى أريد إنقاذه، إذن يجب عليّ إبلاغه، لكن إبلاغه بماذا؟ ....

كرهت الصمت الخالى من المعنى؛ لذلك حرصت على ثنى أصابعى بلا معنى لإظهارى، وكأنى غارق فى التفكير فى شيء ما دقيق، بدأت من أصبع الإبهام، وكلما ثنيت أصبع أومأت برأسى قليلاً، وعند الوصول إلى أصبع الخنصر هذه المرة أميل بعنقى، ثم أعود إلى أصبع الإبهام من جديد، بعد ذلك وقفت أمام أرفف الكتب، وتناولت إحداها وتصفحت أوراقه، لم يوجه بيير إليّ أى سؤال.

... كنت - وأنا أكرر هذه الأفعال عديمة الجدوى - أبحث وحدى عن مدخل للحديث، لكن فى النهاية ودون أن أقول أى شيء، استأذنته فقط فى استعارة كتابين أو ثلاثة ثم استأذنته فى الانصراف، سمح لى بيير باستعارة الكتب، ثم قال لى بعد فترة صمت:

- «إذا حدث لى مكروه، فكل هذه الكتب الموجودة هنا بأنواعها هى لك، تستطيع أن تتصرف فيها كيفما تشاء.»

فى هذا اليوم لم يكن هناك ما أفعله، لذا ظللت فى غرفتى بالنزل أتصفح الكتب التى استعرتها من بيير، فى الظهيرة وبعد انتهائى من طعام الغداء، جاءت فتاة شابة بمفردها لزيارتى، كانت الفتاة مترددة وتسرع فى الكلام بشكل لا يفهم منه شيء على الإطلاق، لكن كان يبدو أنها تريدنى أن أسمع حكايتها فدعوتها إلى الجلوس وأصغيت لها آذانى، لكن مع ذلك لم تهدأ الفتاة، محتوى الحكاية على ما يبدو يتعلق بما يدور فى القرية حاليا، لكننى لم أفهم تماما، كانت الفتاة تنطق قطعا من جمل على عواهنها، مثل البقرة، نفقت .، الجسر .، بعد ذلك سمعت ضجيجًا خارج النافذة، لم أحاول التأكد من ذلك؛ لأننى اعتقدت أنه شجار بين أهالى القرية بعضهم البعض.

لكن فى نفس الوقت بدأت الفتاة ترتعد فجأة، سألتها عن السبب، لم تجب بشيء، ولاذت هذه المرة بالصمت.

أصابنى القلق فجأة، ألا تكون هذه الفتاة مجنونة مثلا؟ لم يكن تفكيرى ذلك مبنى على مجرد التخمين، بل لأنه فى الفترة الأخيرة كثر وجود مثل هؤلاء الناس فى القرية.

بعد فترة هدأ ضجيج الشجار، أحسست بذلك، ولكننى لم أحاول النظر خارج النافذة.

أثناء ذلك كانت الفتاة تراقبنى بعيون شاخصة، لم يكن بيدى حيلة، فجلست أنا أيضًا أمامها صامتًا ....

بعد مرور فترة من الوقت طرق شخص ما باب غرفتى، سألت مَن؟ كان الطارق هو مالك النزل، كان وجه المالك أيضًا تملؤه الحيرة.

- «ماذا حدث؟»

- «.. السيد جاك والسادة مرافقيه ألقوا القبض على الساحرة توا.»

ذهلت عيناى من الدهشة.

- «ساحرة؟! ...، ثم ماذا بعد؟»

- «أجل، اصطحبوها حالا إلى فيبان، وهنا ستُقدم للمحاكمة.»

لا حاجة لوصف دهشتى ومعها قلقى على بيير بعد سماعى ذلك، لكن للتأكد من ذلك كان يجب عليّ الآن الإقلاع عن استخدام الكلام المباشر.

- «هل رأيت ذلك الشخص بنفسك؟»

- «السيد جاك؟»

- «لا، أسأل عن الساحرة.»

- «أجل، بالتأكيد.»

- «إنها، ....»

- «........»

عندها لما وجدت المالك يلوذ بالصمت فهمت فى الحال، لا شك أنه بيير، المالك تحاشى أن يذكر اسم بيير أمامي؛ لأنه إلى هذه اللحظة يتشكك فى علاقتى ببيير .. لكن الفترة التى حددها جاك بنفسه للتسليم من المفروض أنها لم تنته بعد، إذا لم يتم

اقتحام المكان بالقوة والقبض عليه، هل يا ترى سلّم بيير نفسه معترفا بالذنب؟ أى ذنب؟ ذنب إسقاط الأمطار وإشاعة الأوبئة فى القرية؟ ...، يا للغباء!!

لكن حقيقة الأمر كان ذلك عناء لا داعى له، إذ لم يكن من قبض عليه هو بيير ديوفاى.

عندما تركت المالك والفتاة وأسرعت إلى الخارج، لم يعد لجاك ورفاقه أى أثر بالفعل، لم أجد بُد من العودة إلى غرفتى، كان الاثنان يتبادلان الحديث همسا، اعتذرت لهما، ثم سألتهما عن التفاصيل.

كان ما قالاه لى هو ما يلى:

فى الصباح الباكر من هذا اليوم، قُتلت بقرة فى منزل لأحد الفلاحين يقع جنوب القرية، بالصدفة المحضة شاهد صاحب المنزل الجانى، لكنه شك فى أن ذلك ربما يكون حلما، والسبب أن سرعة هروب الجانى لم تكن عادية بالمرة وكان عاريا تماما عندما نظر إليه من الخلف، ولم يستطع معرفة آثار الأقدام التى تركها على الأرض هل هى لرجل أم لامرأة، انتشرت فى الحال هذه الحكاية فى كل أنحاء القرية، ولكن لم يكن هناك من لديه أى معلومات، أو على الأصح لم يصدق الأغلبية منهم تلك الرواية، علم جاك، الذى وصل إلى القرية مبكرا على غير عادته، بهذه القصة وقت وصوله تماما، الأهالى بحثوا عن قاتل البقرة، لكنه اختفى تماما عن الأنظار.

سمع الأهالى أن هناك مَن يقف فى هيئة غريبة عند منتصف الجسر، فاجتمعوا جميعا فى التو والحال عند الجسر، من هنا سأكمل باقى الحكاية مضيفا لها ما سمعته فيما بعد من أناس كثيرين، إذن كان يقف على الجسر شخص عار تماما كما قال

صاحب المزرعة، ولكنى أجد صعوبة بالغة عند الكتابة عن هيئته، والسبب هو أن ما سمعته من أهالى القرية يتعارض مع بعضه البعض، فهم يقولون إنهم رأوا ثديين، ورأوا أيضًا عضوًا ذكريا، إلى هنا اتفقت كل الآراء، لكن كل فرد حكى رأيا مخالفًا عن الآخر حول هل كان ذكرًا أم أنثى، وأيضًا اختلفوا حول أشياء أخرى مثل لون البشرة وطول القامة والمظهر ..، إلخ.

وصل جاك إلى الجسر متأخرا بعض الشىء، فوجئ جاك بشدة وظل لفترة لا يستطيع الكلام.

لكنه أخيرا بعد أن لاحظ الارتباك البادى على أهالى القرية أسرع قائلاً:

- «إنها بلا شك الساحرة التى سببت الكوارث للقرية.»

بعد برهة بسيطة ارتفعت أصوات بين الناس تؤيد ذلك.

اقترب جاك بصحبة رفاقه نحوها وقيدوها، ....

هذا كل ما علمته مما حدث.

بعد أن رأت الفتاة ذلك، حدث لها ارتباك نفسى ووقعت فى رعب مطبق وجاءت إليّ دون أن تعرف سببًا لذلك.

على أية حال زال عنى القلق بعد أن علمت أن من قُبض عليه شخصًا آخر غير بيير، لكن فى نفس الوقت بلغت الدهشة بى منتهاها؛ لأننى على الفور توصلت، رغم بعض الاختلافات، إلى أنها الخنثى التى رأيتها أنا داخل الكهف، لكن الذى نال اهتمامى بشدة هو التطابق المريب لما قاله مالك النزل عن الساحرة مع ما كان يردده جاك دائمًا عن ذلك، قال مالك النزل عن الخنثى: إنها امرأة تعيش بمفردها داخل الغابة وتتقن أعمال السحر، رغم أن مالك النزل لا يملك أى دليل على ذلك، إلا أنه كان يتكلم بشكل قاطع دون أى

شك أو ريب فيما يقول، وأضاف أنها كانت تمسك «مقشة» بيدها، أخمن أنه يقصد تلك العصا التى تحتوى على تلك القدرة العجيبة.

كنت أسمع ذلك مظهرًا الموافقة على ما يقول، تابع مالك النزل كلامه أن الساحرة إذا أعدمت سينقذ ذلك أهالى القرية بالتأكيد، ثم سألنى عن تفاصيل محاكم التفتيش، أجبت على السؤال دون الدخول فى تفاصيل الإجراءات، ثم سألنى هل حقا ستُقتل الساحرة؟ لم أزد هذه المرة أيضًا على قول لا أعرف فقط، تبادل مالك النزل النظرات مع الفتاة، ثم تنهّد تنهيدة تعنى «لا فائدة من الحديث».

أخيرا تركت الاثنين وغادرت النزل مرة أخرى، توجهت فى البداية إلى الكهف.

وصلت إلى المكان بعد أن تقدمت مسافة قصيرة داخل الغابة محاذيًا للنهر، وجدت فتحة الكهف مسدودة بسياج حديدية من اليمين ومن اليسار، العجيب أننى وقتها لم أشعر بأى غرابة فى ذلك، بعد أن لمست الحائط الصخرى مرتين أو ثلاث مرات، توجهت هذه المرة إلى منزل بيير.

فتح بيير باب المنزل دون أن يسأل من أو لماذا وكأنه يعلم بزيارتى مسبقا، دخلت إلى المنزل وأنفاسى الهائجة كانت كالوحش الراقص.

- «...، يبدو أنه تم القبض على ساحرة.»

قلت ذلك لبيير أثناء دخولي.

رفع بيير وجهه وقال:

- «حقا؟!»

- «...، هل كنت تعلم؟»

- «...، لا، ....»

- «إذن لا تعرف من الذى قُبض عليه؟»

أجاب بيير بعينيه فقط، كانت المقلتان باردتين أكثر من المعتاد وبهما رسوخ وثبات، لحظتها تولدت فجأة الشكوك فى داخلى، هل حقا استطاعت الخنثى أن تتخلص بمفردها من القيود الحجرية وتنطلق هاربة من تلك القيود الحجرية التى كانت تقيدها بإحكام وقوة عظيمتين؟ أم هل تم ذلك على يد شخص ما؟ من المفترض أنه لم يكن هناك أحد يعلم بأمر الخنثى فى هذه القرية غير اثنين فقط، بيير وأنا، إذن، إن لم يكن أنا، ....

- هل هو بيير؟

تطلعتُ إلى ملامح بيير فى وجل، ما ظهر على ذلك الوجه كان آثار التفكير العميق الذى لم يتغير عن المعتاد، مع هدوء وتحد هائل يشبه التكبر، لم تكن هناك ذرة لأى علامة من علامات التوتر أو القلق، أهالى القرية فرحوا بإلقاء القبض على الخنثى؛ لأنهم آمنوا أن القرية بذلك قد نجت، لكن على الأقل بيير لم يفرح مثلهم، هل يا ترى فرح بيير؟ لأى سبب؟ هل بسبب نجاته بجلده؟ هل أستطيع أنا أن أجزم بغير ذلك؟ إذا قُبض على بيير فعلى الأرجح سيعدم، وعلى ذلك ستذهب سدى كل الجهود التى بذلها فى الصنعة حتى الآن، من المؤكد أن بيير تنبّأ بذلك، وإن لم يكن، فلماذا قال إنه يتنازل لى عن كتبه؟

هل الخوف من ذلك دعى بيير ديوفاى إلى إطلاق سراح الخنثى؟ من أجل أن يقبض جاك عليها؟ ومن أجل أن يهرب هو من المحاكمة؟ ..

لكن كل ذلك لا يزيد عن مجرد تخيلاتى أنا، ربما يكون القبض على الخنثى لا يزيد عن كونه مجرد حظ رائع لبيير، سألت نفسى مرة أخرى.

هل فرح بيير أصلا؟

لكن لقد شاهدت داخل الكهف بالتأكيد طريقة تعامل بيير مع

الخنثى، كانت بالغة الغرابة، ولو يمكن القول فهى تحمل نوع من قوة التغلغل، شيء يشبه العشق، ولكن بأوسع ما للكلمة من معنى، أى بما تتضمنه الكلمة من المهابة التى توجه إلى الرب، وما تتضمنه أيضا من الازدراء الذى يصاحب مواساة العاهرات، لو نقص أحد المعنيين فلابد أن الكلمة ستفقد ملاءمتها، لقد احتوانى ذلك المشهد من يومها، ينبعث فى قلبى أثناء نومى ويقظتى، وحينما أنتبه أجده يأخذنى ويذهب بتفكيرى بعيدا عن المنطق، ولكن ربما يكون ذلك بسبب أن هذا الذى لا يمكن تمييزه هل هو إنسان أو شيطان أو ملاك، يحمل معنى غير طبيعى بالنسبة لى، طبعًا غنى عن القول ما يعنيه لبيير، ولكن على العكس، أليس من المنطق التفكير أنه الرغبة المحمومة تضل بسبب ذلك القيد؟ ....

لكن على أى الأحوال لم أستطع معرفة ذلك من حركات بيير العادية الظاهرية، كان ذلك موجودا فى الأعماق، مغلقًا عليه فى الأعماق بشدة وحزم وقوة، «المشاعر مخبّئة داخل اللحم» يا لها من نظرية معاكسة غريبة.

فى النهاية لم أستفسر عن الساحرة أكثر من ذلك.

جعلت أجول ببصرى فى المكان لعدم وجود شيء آخر أفعله، وجدت شعاعا خافتا يتسلل من النافذة الجنوبية، ويجعل اللوحة المرسوم عليها الوحش وحيد القرن تتحول إلى الاحمرار، يتلألأ سطح الماء، النيران ازداد لونها غموقا، وامتدت كاللهب منتقلة إلى الشعر الأبيض الأمامى، كان المنظر وكأن الغروب أصبح داخل اللوحة حقًا.

وجدتنى أشعر بالرغبة فى ترك نفسى لأفكار عقيمة متأملا تلك اللوحة، وقتها شعرت باندهاش كبير لو أن اللوحة تشاركنا

التأثر بالزمن، لو أن هذا الوحش وحيد القرن مثلى تماما يقترب من الموت اليوم عن الأمس والغد عن اليوم، لو أنه كلما استقبل مرة الغروب تقدم به العمر داخل اللوحة، لو أنه أخيرا يموت ويتعفن، أو يهجم عليه ما يسميه الأهالى "مرض لهب القديس أنطوان" فيموت هذه الليلة فى الحال، لو أنه حدث عندما آتى إلى هنا فى المرة القادمة أن وجدته قد سقط أرضًا وغرق نصفه فى الماء، وهو يحملق بعينيه التى تشبه لؤلؤة بلا بريق، وفاتحًا فمه ببلاهة، لو أن قرنه المنحنى فى ميل أصبح يشير نحو السماء بلا جدوى، هل يا ترى سأصاب بالدهشة؟ لو أن النيران انطفأت عن آخرها، وفاحت الروائح العفنة من اللحم الذى اسود عن آخره، وسمعت طنين الذباب الذى تجمع حوله، هل سأشعر بغرابة فى ذلك؟ ..، بالعكس ربما لا أعتبره أنا شيئًا غريبًا لو قارنته بتوقف حركة الوحش وحيد القرن وخروجها من نطاق الزمن نفسه، لماذا أصلا لا يعرف وحش وحيد القرن المرسوم فى اللوحة الشيخوخة؟ ..، بالطبع أنا أعرف سبب ذلك، سؤال بالغ الغباء لدرجة أن كلمة السبب تتهاوى، ولكن بالنسبة لى كان هذا شيئا فى منتهى الغرابة، لماذا يا ترى؟ أعتقد أن ذلك عجيب جدا، كانت شمس الغروب داخل اللوحة تتلألأ بالفعل، كل يوم تتلألأ بلا توقف، لكن الوحش وحيد القرن لا يشيخ

مع غرقى فى أفكار لا نهاية لها كهذه، لم أشعر بالامتعاض كما هو متوقع، أى نعم لم أحس بالهدوء النفسى بعد، ولكن ضخامة الفوضى شلّت إحساسى ذلك، إنه تماما مثل النشوة التى لا يمكن التعبير عنها التى يسببها الأرق.

أخيرا، استأذنت فى الرحيل ثم رجعت إلى النزل، فى ذلك اليوم لم ير أى شخص العملاق.

ظللت ماكثا فى القرية أثناء مثول الخنثى للتحقيق فى فييان، ولم أغادرها، كان لا يزال لدى متسع من المال، ولأن أهالى القرية كانوا وكأنهم فى سباق نحو الموت، سأكون كاذبًا لو قلت إننى لم أكن مرعوبًا من ذلك، لكن على أى حال الحقيقة هى أننى بقيت فى القرية، لا أعرف الآن سبب بقائى، وعلى الأرجح وقتها أيضًا لم يكن هناك ما يمكن أن يصل إلى درجة السبب، فى بعض الأحيان كنت أفكر فى باريس وأيضًا أفكر فى فلورانسا التى لم أرها بعد، ولكن حتى شعور الحنين أو شعور عدم الصبر لم يصلا بى إلى الحد الذى يجعلنى أغادر القرية.

قضيت تلك الأيام فى الاطلاع على ما كتبه بيير عن علم الخيمياء.

هذه الكتابات التى تتألف من عدة أجزاء، كان بيير قد أحاطها بالسرية، ولم ينشرها حتى لحظتها، وهى مكتوبة فى "لغة لاتينية دارجة جيدة" على النسق الذائع فى جامعة باريس ولكنها مرصعة ببعض مصطلحات علم الخيمياء صعبة الفهم، هذه الجمل ذات

القوة المتفردة كالأمواج العاتية تشمل داخلها كل المجالات المختلفة لعلم الطبيعة، وفى نفس الوقت تدل فى كل تفصيلاتها الصغيرة على براعة فكرية صحيحة تخلب الألباب، والحقيقة أنها أزالت العديد من الشكوك التى كنت أحملها، لكن الوصول إلى حد فهم كامل كان بعيد المنال، وذلك لأنى لم أزد عن مجرد إلقاء نظرات خاطفة على فقرات منها حسبما عَنّ لى، ولم أشرع فى قراءتها بفهم بالترتيب من البداية منذ ذلك اليوم، مهما حاولت تشجيع نفسى للاستغراق فى التفكير، لم أستطع ذلك، لم أستطع التركيز فقط فى المسائل العلمية دون النظر إلى ما عداها.

بعد القبض على الخنثى لم ير أحد العملاق، لكن درجة الحرارة فى القرية كانت على برودتها لم ترتفع، ولا تُرى أى بوادر لتوقف الوباء أو الأمطار الشديدة التى تهطل كل ليلة، ثم فى صباح اليوم التالى يظهر قوس قزح، وجاء الوقت الذى توقفت فيه جلسات الشراب فى حانات القرية، وعوضًا عن ذلك جلس الرجال يكررون كل ليلة جدالا لا فائدة منه، ولقد دعونى للحضور مرتين أو ثلاثة مرات، شاهدت حوارتهم وكان محتواها هو نفسه فى كل مرة، بعضهم يرى أن السبب فى عدم انتهاء الكوارث هو أن الخنثى لا زالت على قيد الحياة إلى الآن، وأنه يجب صدور الحكم ويجب إعدامها بأقصى سرعة، فى مقابل ذلك يرى البعض الآخر أن سبب عدم توقف كوارث الماء والبرد هو أن القبض على الخنثى كان خطأ وأنه لا زالت الساحرة الحقيقية موجودة فى القرية حتى الآن، وهم يقصدون بذلك التلميح إلى بيير.

بالطبع لم يخرج الجدال برأى حاسم، ولكن مع مرور الأيام أصبح أصحاب الرأى الأول هم الأغلبية، وهم يؤكدون على حقيقة أن العملاق لم يظهر ثانية منذ يوم القبض على الخنثى.

فى جدال كهذا، لم أنضم بالطبع لأى من الفريقين، ولم أستطع حتى التوفيق بينهما وأنا أحاول قول شيء ما، يشبه الحقيقة، بل أنى لم أستطع حتى مجرد نقد وتفنيد جهالاتهم، مع تزايد عدد الموتى، جاء الوقت الذى أصبحت فيه الجثث تُدفن فى مقابر جماعية، ذكّر ذلك الناس مرة أخرى بتفشّى مرض الطاعون فى الماضى، وعندها تذكروا النهاية المأسوية لذلك، أمّا أنا فلم أزد على كونى مجرد شاهد عديم الحيلة، الذى استطيعه هو مجرد القيام بطقس الدهان الأخير الذى يبدو عديم الفائدة.

وهكذا ازداد بين الناس مؤخرا قلق مصيرى، لكن فى داخل هذه القرية الذابلة، كان هناك فردان اثنان فقط على حد ما أعلم، لم يحدث لهما أى تغيير، هما بيير، وجان، بيير الذى يعلم بكل شيء، وجان حيث ظل غير فاهم لأى شيء، وبين الاثنين غيوم، يذهب يمينًا ويأتى يسارا، وكان غيوم لا يزال على ما هو عليه، لم يتغير إخلاصه تجاه بيير، لكن زاد خنوعًا وذلة عن ذى قبل.

بعد ما حدث زار غيوم الحانة عدة مرات، لكن فى كل مرة كان يتلقى مهانة واستهزاءً كبيرين، مما جعله ما أن يدخل باب الحانة حتى يعود على أعقابه غير قادر على التحمّل، انتهى بالفعل شعور الاستحياء الذى كان لدى الأهالى فى السابق، تحوّل شعور الاحتقار كما هو إلى كلمات جارحة وضحكات هازئة يتَلقَّاها غيوم كما لو

كان يُبصق عليه، لم أعدم تماماً شعور التعاطف تجاه غيوم، فهو حالياً مع معاناته فى تدبير المعيشة يقيم عيشه بصعوبة بالغة على القليل الذى يختلسه من أموال الطعام الذى يعهد بيير إليه بتدبيره، وكان بيير يتغاضى عن ذلك، فقد كان يتظاهر بالجهل، مع أنه كان يعلم، لكن ليس هناك حاجة للقول إن عدم تخلى غيوم عن بيير لم يكن بسبب تلك الحسابات الدنيئة فقط، فعلى الأقل لم يتعامل بيير مع غيوم بطريقة فظة وجارحة مثلما يعامله باقى أهالى القرية، هو بالطبع لم يبالغ فى إكرامه، وهذا بالذات ما جعلنى أشعر بالألم، ....

حسنا، اليوم هو اليوم السابق لعيد رفع السيدة مريم العذراء إلى السماء، لم يمر إلا شهر واحد فقط منذ القبض على الخنثى، بعد أن استيقظتُ من نومة خفيفة فى الشروق نفضت القش عن ملابسى ثم غادرت النزل، على غير المعتاد، اللون الأحمر زال عن السماء، تنهّدت بلا وعى تنهيدة أسى، أمام قوس قزح الذى لم أره لفترة، تلألأت الأرض المبتلة بالوحل فى ريبة، عندما أدرت نظرى استطعت رؤية القمح الفاسد، والمحاريث الضخمة التى أهملها الفلاحون.

منذ بضعة أيام، جاء إلى القرية جاك الذى كان قد ابتعد عن وظيفته الكهنوتية لفترة طويلة من أجل القيام بالتحقيق مع الخنثى، واستقبله أهالى القرية بفرحة تشبه فرحة من زارهم نبى، أمام جموع المستقبلين خطب جاك قائلاً، «اعترفت الساحرة بذنبها أخيرا، وبناء عليه سينفذ فيها حكم الإعدام حرقًا بأقصى سرعة، فيما بعد سأعلمكم بميعاد تنفيذ الحكم، ولكن على الأرجح سيكون المكان فى الساحة التى تقع شمال غرب القرية.»

كان ميعاد تنفيذ الحكم هذا، هو اليوم.

جرت الأمور منذ إلقاء القبض مرورًا بالمحاكمة وصولا إلى تنفيذ الحكم، بسرعة شديدة تدعو للدهشة، حتى بالمقارنة بالحالات السابقة فى الماضى، أو بما علمته أنا من حالات بعدها، فقد كانت سرعة غير عادية، لن أتحدث عن الأسباب بالتفصيل، ولكن لا يوجد شك فى أن التماسات أهالى القرية المستميتة ساعدت فى ذلك.

فلقد زاد حقدهم تجاه الساحرة أكثر وأكثر يومًا بعد يوم منذ أن عرفوا فى وقت مبكر أن محصول القمح لهذا الشتاء لا أمل فيه البتة، تمامًا مثل التراب فوق المكتب، يتفاقم مع الوقت فى شكل حبات دون هيكل حقيقى، أهالى القرية كانوا غارقين فى اختراع نظريات خيالية لا أساس لها، أحدهم، يحكى عن سيرة حياة الخنثى مع عدم وجود أى فرضية لمعرفته بها، وآخر يضيف على ذلك حكايات خفية تخص والدى الخنثى، وهناك من يقول إنها قبل القبض عليها زارت القرية مرات عديدة سرقت فيها ماشية كثيرة، وقال رابع: إنها وضعت السم فى النهر.

وعلى الجانب الآخر كان من يربط بينها وبين بيير عدد غير قليل، من يقول: إنه رأى الخنثى وهى تزور منزل بيير، ومن يقول إنها زوجة بيير، ومن يقول ابنته ومن يقول ابنه، ....، لكن، وسط هذه الشائعات الكثيرة وحتى النهاية لم أسمع من يقول إنه رأى بيير يتردد على الغابة، إنهم رغم جهلهم أصلا بالعلاقة الموجودة بين بيير والخنثى، ولكن شكهم فى كلاهما جعلهم يربطون بين الاثنين

داخل خيالهم، شكى أنا بدأ من هذه العلاقة، ولكنهم إن شئنا القول انتهوا إليها، الشائعات لم تتوحد، بل وتولد عنها عدة حكايات متناقضة مع بعضها البعض، لكن أهالى القرية لم يرتابوا فى ذلك، لا يزيد الأمر، إن حدث تناقض، أن يعالجوه بتأليف حكاية جديدة.

تذكرت حكاية تعليمية لا أعلم مصدرها سمعتها فى طفولتى، محتواها كالتالى: كان هناك رجل يحمل قلبًا عديم الإيمان، هذا الرجل غواه الشيطان فجعله يؤمن بالآتى: أن الله، بسبب غضبه من عدم إيمان الناس، سيسقط على هذه الأرض بعد سبعة أيام صخورًا عملاقة من السماء، الصخر الواحد منها فى حجم ثلاثة ثيران كبيرة، ولمدة أربعين يومًا وأربعين ليلة، ويتبع الشيطان كلامه للرجل، «من أجل ذلك يجب عليك من اليوم بناء كوخ من الأحجار يستطيع تحمّل ذلك، من الأفضل بناء كوخ يسعك أنت وحدك؛ لأنه أولا لا يوجد وقت بالإضافة إلى أن الكوخ فى الأصل كلما كان كبيرًا كلما كان هشا، وسأتولى أنا إمدادك بالطعام اللازم لفترة الأربعين يوما». بنى الرجل الكوخ على عجل كما قيل له، وحتى لا ينهار مع أى أمطار صخرية، كدّس ما قدر عليه من حجارة فوق سطحه، ثم بعد سبع أيام دخل الرجل الكوخ مرعوبا فى انتظار سقوط الصخور، لكن مهما انتظر لم تسقط الصخور، نظر الشيطان إلى ذلك وابتسم فى رضى ثم من قاع الأرض هز سطحها هزة بسيطة، عندها سقط السقف الذى بناه الرجل بنفسه من الأحجار ودُهس تحته مفارقا الحياة.

تنبّهت أنا إلى أن هذه الحكاية بها العديد من الحقائق على غير المتوقع، ثم رأيت أهالى القرية حاليا، يكادون أن يُدهسوا تحت الخيالات التى صنعوها فوق رؤوسهم بأنفسهم.

... بعد انقضاء الظهر بقليل، وصل إلى القرية جاك مصطحبًا معه الخنثى وعددًا من المحققين الآخرين، وكذلك القضاة ويوستاس الذى كان قد أُستدعى للتحقيقات.

كما ذكرت آنفاً، تقرر أن يُنفّذ حكم الإعدام حرقًا فى الساحة التى تقع شمال غرب القرية، يمر النهر الصغير بجوار ساحة تنفيذ الحكم، وبعد أن تتحول الساحرة إلى رماد يتم فى الحال رمى الرماد فيه، ويقال: إن ذلك من أجل ألاّ تجمع الساحرات الأخريات اللائى ما زلن طليقات ذلك الرماد المتبقى بعد الحرق وتستخدمنه فى أعمال السحر، إذا تكلمت بإسهاب نوعًا ما، فإن مكان تنفيذ حكم الإعدام يقع فى المواجهة تمامًا مع الكهف المعنى على الناحية الأخرى من الجسر الذى يتوسط القرية، وذلك ما اكتشفته فيما بعد.

حسنا، أهالى القرية عندما جاءهم الخبر، توجهوا فى التو واللحظة إلى مكان تنفيذ الحكم، وأحاطوا بعمود الحرق ولفائف الحطب الكثيرة التى صُفت على هيئة شجرة أرْز، وقد رأيت بينهم مالك النزل، وأيضًا غيوم وزوجته، وغير ذلك تجمّع أغلب سكان القرية، وعلى الأرجح من ظل فى منزله هم المرضى.

كان الأهالى يتبادلون التحية ومن وقت لآخر يتشاركون فرحتهم بتنفيذ الحكم اليوم، تضج أصوات الضحك من جهة، وتتناهى إلى السمع أصوات تلعن الساحرة من جهة أخرى، لا يوجد شخص واحد يحس بالأسى تجاهها، خفّت حدة النزاعات التى كانت موجودة بين الأهالى قبل القبض عليها، وأصبحوا الآن يتوجهون بكل غضب يحملونه ولو كان ضئيلا نحو الساحرة، كانوا مخدّرين بعاطفة غريبة توحدهم فى مواجهة الساحرة، بل إنها عاطفة متينة

وقوية للغاية لدرجة لم يخبروها بأنفسهم بينهم من قبل.

بعد أن ظللت لفترة أتأمل حال الأهالى رفعت نظرى إلى عمود الحرق ثم نظرت عاليًا إلى السماء، لا توجد ولو سحابة غيم واحدة، ولم يكن هناك للريح أى أثر، بسبب البرد القارس ورغم هذا الوقت من العام، لم يكن هناك أى خوف من حرارة الجو على الإطلاق، هل هو وهم أتوهمه، فأنا أسمع من بعيد صوت حشرات الزيز، لدرجة أنه إذا غفلت لحظة أكاد أن أتثاءب.

كانت السماء فى حالة أريد وصفها بالصافية والهادئة.

فجأة تسللت إلى أذنى كلمات أحد أهالى القرية ممن يقفون أمامي.

- «هاه، انظر أمامك، ....، إنه بيير، ....، نعم بيير الخيميائى»

نظرت إلى حيث تُشير أصابع الرجل، كان وجه بيير يتلصص النظر من بين صفوف الناس التى تفور بالضوضاء وهو يلف رأسه بغطاء للرأس شديد السواد.

الرجل الذى بجوار القائل أومأ قائلاً:

- «نعم، لا يوجد شك، هذا هو بيير.»

- «ولكنه شيء يدعو للدهشة!!»

- «هو كما تقول، هل الأمر كما هو متوقع، يهم هذا العجوز المخرف؟»

- «نعم هو كذلك.»

ثم تدخل رجل ثالث فى الحوار وقال:

- «بالطبع الأمر يعنيه؛ لأن الدور سيكون عليه فى المرة القادمة.»

عندها، تعالت أصوات فجأة من بين الصفوف التى انقسمت فى أحد الأماكن إلى اليمين واليسار، وفُتحت الطريق.

- « ... السـاحرة!»

هكذا تسربت من هنا وهناك همسات لا يمكن تفرقتها عن التهيدات.

فى جوارها يلازمها منفذو حكم الإعدام وفى الخلف جاك متربصا، ثم قذفوا بها بعنف إلى موضع أقدامهم، لا يوجد مجال لأى شك، إنها الخنثى التى رأيتها داخل الكهف.

لقد فجعتُ من آثار التعذيب الواضحة، ملفوف حول الخصر قطعة واحدة من قماش رقيق، تمشى زاحفة على أربع كأنها حشرة عملاقة، كلما حاولت الاعتدال بتحريك جسدها تفشل فى كل مرة وتنبطح على الأرض، كل أطرافها الأربعة منخلعة، وملتوية بشكل غريب، الأرجل محطمة تمامًا؛ لتصبح كأنها كتلة من اللحم، لم يبق من الأظافر ولو ظفرًا واحدا، حُلق شعر الرأس كله بالموس، وضاع التاج الذى به الورد والثعبان ذلك الذى يعض ذيله، البشرة التى كانت تلمع بلون الذهب، بها أعداد لا نهائية من الجروح الصديدية التى حُفرت برشق الإبر فيها، الشقوق التى فى اللحم انقلبت كأوراق الورد لتكشف لونها القرمزى الداخلى.

لو شئنا القول كانت عبارة عن جثة متحركة، لم أصدق كلام جاك عندما قال «الساحرة اعترفت بذنبها»، هذه الخنثى لم تنبس ببنت شفة، فى الأصل هذا الكائن الغريب ليس فيه روح، كيف يستطيع هذا الشيء استخدام اللغة؟ كيف يقال يا ترى إنه اعترف؟ لا يوجد فيه إلا الجسد فقط، ولأنه لا يوجد غير الجسد فهو يحيا فقط حسب منطق الجسد، لذلك فالموت والحياة متقاربان بشكل يبلغ حد الوقاحة، تعفن الجسد الذى من المفروض أن يحدث بعد الموت، لم يستطع الانتظار فحدث ببساطة وتلقائية مع الحياة، والحياة تقبلت ذلك.

قذف رجل بحجر، وكأنها إشارة فيما بينهم، بدأ الجميع فى تناول الأحجار وإلقائها.

تطايرت اللعنات والشتائم، من أصاب فى رميته الأولى انطلق مستمرا فى الرمى مرة ثانية وثالثة دون ملل، من لم يجد حجراً بجوار قدمه أخذ يحش بيده الحشائش ويرميها بلا طائل، تناثرت الأحجار التى أصابت الجسد متدحرجة فى المكان كأنها سرب من النمل.

أخيراً أصاب حجر بحجم قبضة اليد جبهة الخنثى ليجرحها.

توقفت الحجارة، لم يكن ذلك بسبب الشفقة، ولكن لأنه فى ذات اللحظة التى رفعت فيها الخنثى وجهها أسفرت عن عين مفتوحة على شكل نجمة تبرق متلألئة، العين اليمنى خضراء كزمردة والعين اليسرى حمراء كياقوتة، أهالى القرية تفاجئوا بغرابة المنظر، فتسمّروا فى أماكنهم بلا حراك.

أنا لم أقذف أية أحجار، لكن الرعب الذى تملكنى وقتها لم يكن به أى اختلاف عن ذلك الذى أصاب أهالى القرية، وذلك لأنى أنا

أيضًا كنت أرى هاتين العينين لأول مرة، كان بهما قسوة ما صعبة المراس، وتشعان ضوء كأنهما جوهرتان تم صقلهما بعناية، مُقلتا الخنثى وبسبب بساطة الجواهر وحتى لا تحملان داخلهما أى شىء، كانتا لا تعكسان أى شيء، ولا تستقبلان أى شىء، وترفضان الإدراك بشكل عجيب، رغبتهما الوحيدة هى أن تُدركا فحسب الناس ارتعدوا لذلك، ولو شئنا القول لقد انتُقِمَ من مائة رمية بالحجارة برمية واحدة فقط، ثم وكأنها نصل حاد اخترقت تلك الرمية المُقل العديدة لأهالى القرية، لتصل إلى أعمق أعماقهم وتبدأ فى الإيلام من عمق الجسم؛ لتتضافر تلك الآلام مع آلامهم الداخلية المبرحة وكأنها آلام قدرية موجودة من قبل منذ زمن بعيد، هذه الآلام شبيهة بالخطيئة الأصلية، إنهم لم يستطعوا مواجهة الساحرة طويلا، لم يُصابوا بآلام جديدة، بل يمكن القول: إنها آلام بُعثت مرة أخرى.

ولم أكن أنا أيضًا استثناء، لكن الذى أصابنا باليأس فعلا هو ما حدث فى اللحظة التالية.

فقد فاحت وقتها رائحة عطر طيب من جسد الخنثى البالغ الدمامة.

انتشرت الرائحة العطرة بسرعة لتصل إلى صدور الناس، كانت رائحة بها سمو ورقة وحنان بحيث لا يمكن لرائحة الورود التشبّه بها رائحة نشتاق إليها.

ارتبكت أحاسيس الناس فسقط ما فى أيديهم من أحجار، ذلك لأنهم اعتقدوا أن مثل هذه الرائحة الجميلة لا تتناسب إلا مع القديسات فقط.

تذكرت على الفور، حكاية «ليدوينا» المشهورة فى مدينة سخيدام الهولندية، يُقال: إنه كانت تفوح رائحة عطرة من جسدها

الذى تهـرّئ بفـعل الديدان، بل أنه انطلقت الرائحـة العطرة من الصديد ومن المواد التى تقيئتها، بل وحتى من البراز، أنا لا أعرف إن كانت ليدوينا قديسة حقا أم لا، رغم إقرارى بالاستحالة ولكن إذا كان هناك احتمال لوجود آخر، غير الابن الوحيد للرب، يستطيع التكفير عن ذنوب البشر بجسده، ألا يمكن أن يكون هذا الجسد المتعفن للخنثى هو التعبير الواضح لعمق معاصينا؟ أليس هو التعبير الجلى عن أكثر خطايانا صعوبة فى تحمّلها، والتى ظللنا نغض البصر عنها طويلا؟ لم أستطع منع نفسى من هذه التساؤلات.

زادت الرائحة العطرة من حدتها، جاك الذى كان حتى الآن يراقب ما سيفعله الأهالى، تغيرت ملامحه فجأة، ثم أمر بصوت مهتز المنفذين بتقييد الساحرة فى عمود الحرق على وجه السرعة.

تسلق عدد منهم سُلّمًا كان منصوبًا على عمود الحرق، كان عمود الحرق عبارة عن شجرة قُطعَت من الغابة، شجرة عملاقة بلون الطمى المحروق بها سبع عُقَدات كبيرة تشبه عيون الوحوش، ومنحوت فى قمتها صليب، كانت هائلة الارتفاع، تمتد لتشير مباشرة إلى السماء بلا أى اعوجاج، العجيب أننى أحسست بوجود حياة فى ذلك العمود الذى قُطِعَ منه الأفرع المثنية، إنه بالضبط شيء مضاد لتلك التى توشك أن تُعدم حرقا بعد قليل، فهنا الحياة تخطت نقطة الموت وأصبحت الحياة كأنها تلعب بمادة تواصل الموت.

تم تقييد الخنثى بالسلاسل فى أعلى العمود متجهة ناحية الشرق.

ثم وضعت أكوام جديدة من الحطب عاليًا؛ لتقترب من موضع قدمها.

بهذا تم الانتهاء تقريبا من استعدادات تنفيذ الحكم.

وقف جاك وسط جموع الناس وبدأ الوعظ، وبعدما انتهى من الوعظ طلب من الأهالى التعهد قسما بالمساعدة فى دحر الهرطقة، فلبى الجميع بقولهم «آمين».

وبعد ذلك بدأ جاك يتلو أخيرا نص الحكم، كان من المفروض فى الأصل أن تتم هذه الإجراءات بما فيها الوعظ قبل تعليق الساحرة فى عمود الحرق، لكن جاك لما رأى الأهالى قد أصابتهم الرائحة العطرة بالاضطراب عكس الترتيب، لا أدرى هل فعل جاك ذلك عمدًا أم هو مجرد خطأ؟ لكن على أى حال فقد بدأ الأهالى رغم حيرتهم يحاولون مرة أخرى النظر إلى الساحرة المقيدة أمامهم على أنها تمثل الشر، بدأت تظهر على وجوههم من جديد أشكال من الحقد.

بدأ نص الحكم على الساحرة بالجمل التالية:

- «نظرا إلى الكوارث المتعددة التى قامت بها المدعى عليها فى هذه الأرض والتى تعتبر عملا من أعمال السحر لا مراء فيها، بحثنا مليا كل تفاصيل القضية من شهادة أهالى القرية والدلائل بالإضافة إلى اعترافها شخصيا، اجتمعت آراءنا على إصدار الحكم التالى: إن المدعى عليها قامت بتدنيس اسم الرب الخالق الأوحد، وأنكرت الكنيسة، وأهانت الكتاب المقدس، وآمنت بإله الأغيار الشرير، وأقامت علاقة إباحية مع الشيطان.»

ثم تابع جاك فذكر بالترتيب كل طقوس التعاقد مع الشيطان، وأيضًا طرق استخدام السحر لقتل الماشية، وطرق استخدام السحر لنشر الأمراض والأوبئة، وطرق استخدام السحر لإسقاط السيول، إلى آخره، علاوة على ذلك ناقش دون حياء ما يتعلق بذنب

إتيان البهائم، ومضاجعة ذكور الشياطين، وكلما تقدم جاك فى تلاوة نص الحكم كلما صحب صوته اهتياجًا وحِدّة، مما جعل الانفعال يزداد بين الأهالى».

- «...، لا شك أن كبائر الذنوب هذه، التى يعجز اللسان عن وصفها، والتى يجب احتقارها والحقد عليها، هى تدنيس لاسم الرب الواحد القدير، ....، نحن باسم الرب يسوع والعذراء مريم، نعلن أننا تأكدنا من ذلك وحكمنا على المدعى عليها، أنها مرتدة حقيقية، ومذنبة بجريمة إتيان البهائم، وجريمة السحر الشيطانى الأسود، وجريمة القتل، وعبادة الشيطان، وتدنيس اسم الرب، وبأنها ساحرة حاولت عبثًا إفساد نظام الكون الذى وهبه لنا الرب الخالق، ونعلن ذلك على الملأ، وبناء عليه، نسلّم المدعى عليها إلى السلطات التنفيذية التى لها الحقوق القضائية المكفولة للدولة، السلطة التنفيذية بالطبع ستصدر الحكم بإعدام المدعى عليها عن طريق الحرق حيا، لكننا لأننا نؤمن برب رحيم نطلب لها الرأفة.»

بعد الانتهاء من تلاوة نص الحكم ارتفعت من بين جموع الأهالى صيحات تشبه دعوات النصر والتأييد ثم تعالت الصيحات من هنا وهناك وكأنها الفقاقيع التى تظهر عند غليان الماء، تترجى وتطالب بضرورة الحرق على العمود.

تم قبول طلب الأهالى بدون أى عائق، أصلا الخنثى مرفوعة بالفعل فوق العمود لإعدامها، ولا يبقى سوى انتظار إشعال النار فى الحطب.

ثم صدرت الأوامر، فأشعل المنفذين النار من الجهات الأربعة.

... بدأ الدخان يتصاعد فى هدوء مكونًا عدة خطوط رفيعة كأنها أحبال تصنع شبكة، الهواء ساكن، والسماء صافية، ظلال الدخان تشير بعيدا وهى تهتز اهتزازًا ضئيلا، الشمس عالية، وظلال الناس كأنها تسربت خلسة من أجسادهم، وتوقفت فى بقع صغيرة عند أطراف الأقدام، بعد أن ساد الصمت البطيء لفترة، لمست شفاه الناس كلمات، كالعصفور الذى هب فجأة للطيران، ثم توقفت الأصوات، حتى السعال توقف، الصمت يبتلع الأنفاس ويجمدها، مسيطرًا على جموع الناس ومقيدًا المساحة حول عمود النار تقييدًا لا فكاك منه.

كوّن سياج وهمى دائرة حقيقية كأنها مقاسة بدقة، لم يستطع الناس لا الدخول داخل خط الدائرة غير المرئى للعيون، ولا الخروج منها، تشكّلت منطقة تتوالى طبقاتها لعدة مرات، ولا يمكن اختراقها أبدًا.

أخيرا بدأ يُسمع صوت قرقعة الحطب، ثم سُمع بعدها صوت غليان السائل النباتى، وزادت كمية الدخان، أحبال الشبكة التى

صنعها الدخان راحت تتفكك قليلا من أعلى، اختلطت الرائحة العطرة التى تنبعث من الخنثى مع رائحة الحطب المتفحم، وتتحول إلى رائحة خليعة بشكل عجيب، تفوح فى المكان، كرائحة تفاحة حلوة المذاق تحترق، ازداد اللون الأحمر فى قاع أكوام الحطب، يخرج لهب صغير من فراغات الحطب وكأنه فئران هاربة.

كان جميع الناس يكتمون أنفاسهم، يبدو أن الحطب يحتاج لبعض الوقت؛ لكى يتوهج بسبب امتزجه بالعديد من الأعواد الخضراء، اللهب فى منتصف النهار خافت، تمر حرارته بين الدخان الكثيف، وتنساب كأنها حجاب من ماء رائق لتُظهر الناس الواقفين أمامها مشوّهين، وهم ما زالوا على حالتهم، لا يحاول أحد التكلم، فقط يراقبون فى صمت، وكأنهم يحاولون بنظراتهم المتحمسة تلك زيادة الحطب اشتعالا.

عكّر هذا الصمت قليلا تنحنحات يوستاس، اختلستُ النظر إليه، تبتل عيناه المخمورتان فى حمرة، ويتوقف اللعاب على شفتيه المرتعشين، لا يوجد أى اختلاف فى طريقة نظر هذا الرجل إلى المحكوم عليها عن نظرة الأهالى، بل ربما يزيد عنهم حماسة فى سكب النظرات، على يمينه يقف جاك ومنفذو حكم الإعدام، وعلى يساره تقف الثلاث فتيات السالفات الذكر.

بعد فترة، تغير قليلا الوضع تحت عمود الحرق، تبخر السائل النباتى تماما، ولم نعد نسمع ذلك الصوت، وفاض الدخان بكثرة، تغيرت ظلال الدخان عن السابق فأصبح لونها أسود معكّر، يحمر اللهب قليلا مثل البركان كلما هبّت الريح الخافتة، تضخم اللهب من

الداخل فى غفلة من الزمن، وكأنه يشبه أحد المخلوقات المشوّهة، يمد اللهب فى بعض الأحيان أطرافه بسرعة نحو الحطب المجمع خارجه، ويمسك به ليحاول وضعه داخله، لكن أكثر هذه المحاولات لم تنجح، فقط تنتهى المحاولات بآثار لخطوط مشؤومة بلا فائدة، وعندئذ تتطاير عدة أحطاب صغيرة وكأن النيران فقدت فجأة السيطرة على انفعالاتها، ثم زادت النيران من قوتها بشكل مفاجئ، وصوت قرقرة الحطب الذى كان متباعدا، أصبح تدريجيا متواصلا دون انقطاع، وتردد صداه مثل صوت أمطار شديدة مفاجئة تضرب الأرض، تناثر فى المكان عدد من قطع الشجر، هى أيضًا أجزاء تطايرت عند اهتجاج النيران.

صعدت الحرارة من قاع عمود الحرق حتى وصلت إلى جموع الناس كأنها ماء ساخن يتدفق، الخنثى خافضة الرأس، ولا تُصدر أية أصوات تألم، ونادرا ما تُحرك جسدها، لم تتغير ملامح الوجه؛ ولأن حرارة النيران وصلت بالفعل إلينا نحن، فليس من المعقول أنها لا تحس بها، برزت حبات العرق فوق جباه كل الناس، إذن ما السبب؟ لماذا لا تتألم الخنثى؟ هل تبلدت أحاسيسها بسبب تعذيبها تعذيبا لا يحتمل؟ أم أنها لا تعرف الألم من الأصل؟.

يبدو أن الأهالى أيضًا ارتابوا لذلك، فهم يعقدون حواجبهم ويميلون أعناقهم مرة بعد مرة، وهنا ظهر منهم من كسر سياج الصمت وتبادل الحديث همسًا مع جاره، أثناء ذلك استدعى جاك منفذى حكم الإعدام أكثر من مرة، وقد بلغ به الغضب مداه، وأعطاهم تعليمات ما، وفى كل مرة كان المنفذون يُظهرون علامات

النفى الشديد، لا أعرف محتوى الحوار لكن من خلال الوجوه الحائرة للمنفذين ، أستطيع تخمين قدر منه، على أية حال، فالمنفذون أنفسهم كانوا لا يعرفون السبب.

عندما كنت أجول بنظرى بين الحاضرين لمحت فجأة بيير، لم أستطع رؤية ملامح وجهه بوضوح؛ لأنه كان مختفيا وراء ظل غطاء الرأس، لكن وجنتيه اللاتى لمحتهما للحظة، كانتا كما هما دوما، لا يوجد بهما أى أثر على الإطلاق لمشاعر الحقد، كان يراقب وقائع تنفيذ حكم الإعدام صامتا، بعيدًا عن صخب الأهالى، وهو يلف جسده بمعطف، ....

تدريجيا بدأت ملامح الناس يظهر عليها الارتباك بوضوح، ليس فقط على الوجوه، بل ظهر ذلك أيضًا من حركاتهم التى تبدو غير طبيعية، مثل حكّ أجسادهم بشكل مفرط دونما سبب، وفرك أرجلهم إحداها بالأخرى، إنهم يُصلّون فقط من أجل موت الساحرة، يتمنون لها ميتة شنيعة بقدر المستطاع، لكن ينتابهم من ناحية أخرى قلقا محتواه إذا كان الأمر بهذا الشكل، أليس تحقيق ذلك مستحيلا؟! منذ اللحظة الأولى التى رأوا فيها هذه الساحرة، عرف الجميع أنها كائن غير عادى على الإطلاق، رغم إدراكهم ذلك، عملوا على التأكيد بأنها ساحرة، لا.، بل ربما لأنهم أدركوا ذلك حاولوا تصديق أنها ساحرة، ثم أحسوا بتولّد تلك الشكوك مرة أخرى عندما رأوا الساحرة مساقة نحو ساحة الإعدام، ثم الآن مع رؤيتهم ما يحدث فوق عمود الحرق لم يستطعوا منع أنفسهم من الإحساس بذلك الشعور أكثر من ذلك.

أخيرًا اقتربت النار من أقدام المحكوم عليها، عندما انتبهت وجدت أن النيران قد اضطرمت سريعًا من أكوام الحطب، وغطّى سطحها ما يشبه سجادة حمراء، ثم أصبح الدخان كثيفا، ومعه تتصاعد ذرات النار تترقص دون انقطاع، الحطب الذى تفحم زاد داخله الأجزاء التى تحولت بالفعل إلى رماد أبيض، لكن قوة النيران لم تخمد، بل على العكس ازدادت اشتعالاً.

- عندها ارتعش فجأة جسد الخنثى بقوة، فتح أهالى القرية عيونهم باندهاش، وذلك لأنه عندما اهتز الجسد، سقطت قطعة القماش التى كانت ملفوفة حول الخصر، فظهرت عورة مَن على العمود.

فى ذات اللحظة تقريبًا صرخ أحد الأهالى:

- «الشمس!!»

رفع الجميع أبصارهم إلى السماء، عندها انتبهوا لأول مرة إلى الأمر الغريب الحادث، الشمس التى كانت حتى وقت قريب تسطع دون وجود أى حاجب على الإطلاق، بدأ يجتاحها ببطء من طرفها ظل أسود، لم يكن ذلك سحاب، بل ظل أسود يشبه شكل الشمس تماما، شمسٌ أخرى سوداء، - إنه الكسوف.

ساد الرعب الشديد فجأة على وجوه أهالى القرية؛ لأنهم رأوا فيه نذير شؤم.

على الأرض، كانت ألسنة النيران قد ارتفعت متتابعة وابتلعت جسد الخنثى بالكامل مصدرة صوت كأنه صوت الصاعقة، تطايرت

ذرات النار متلألئة فى الهواء، بينما أصبحت الرؤية صعبة بسبب الغبار والدخان، مما جعلنى رغما عنى أُخفِض وجهى لأسفل، فاضت الحرارة وهجمت كالأمواج العاتية تحاولِ إبعادنا عن عمود الحرق، فتوسّعت دائرة الناس قليلا، أنا أيضًا تراجعت للخلف عدة خطوات، وعندها استطعت رفع وجهى بصعوبة، بعدما هدأت النيران قليلاً، ظهرت الخنثى مرة أخرى أمام عينى، وبدأ جسدها المتفحّم يهتز بعنف فوق عمود الحرق، تغيرت بشرتها إلى لون أسود به لمعان خفيف كالمعادن، ضجت حشود الناس المكتظة، النار التى تلونت بلون أحمر مثل ثمرة رمان أينعت، لم تستطع مقاومة قوة الانتفاخ الموجودة فى داخلها فتشققت عدة مرات، تناثر اللون الأحمر وظهر جليًا فى الظلام كأنه دماء تتدفق.

لازالت الشمس تتآكل، والسماء تهتز بسبب نبوءة الظلام المفاجئة، وبدأت الرياح تهب من الشمال، وتهب أيضًا من الجنوب، وامتزجت رياح الشمال ورياح الجنوب عند عمود الحرق؛ ليرتفعا إلى أعلى فى صحبة النيران والدخان.

ازدادت النيران حدةً وعنفوانا.

وأخيرًا سيطرت النيران على المحكوم عليها بالكامل، تلوّى الجسد من الألم والمعاناة، ولكن لا يبدو أن الألم سببه غضبة النيران المتوهجَة، لا يبدو أن سببه تلك الحرارة، على الأصح هو ألم يُشير إلى سبب ما، يفوق ذلك، أى إنها إشارة تجاه الأفق، إشارة مرفوعة عاليًا نحو السماء.

فجأة أبرزت الخنثى فكّيها ووجّهت عيناها إلى السماء، تموج نبض الدماء الذى يجرى فى العنق، كأنه ثعبان منحنى الرأس وتضافر مع خط من الدماء يسيل من الجبهة.

اهتز عمود الحرق، وتلألأت رغبة الصعود فى ملامح المحكوم عليها، وانتشر تألق أبيض من الجسد المتحلل بالحرق.

ترددت أصوات زاعقة، بعد ذلك انتفض العضو الذكرى للخنثى منتصبا فجأة، وبدأ يرتعش وحيدًا رعشةً غريبةً.

فى ذات اللحظة قادتنا صرخات لعدة أشخاص، لننظر جميعًا إلى السماء.

- لم يكن ذلك المنظر غير كابوس مرعب، فقد ظهر فجأة فى سماء الغرب ذلك الكائن العملاق الذى أشاع الجنون فى أهالى القرية.

ارتبت فى عيناى، لقد ظهر العملاق كما قالت الشائعات مكوّنًا من جسدين لذكر وأنثى، يتضاجعان من الخلف كما الوحوش، ويبرز بغموض فى سماء الظهيرة التى تتجه إلى الظلام، كانت ضخامة لا تقاس، يهجم الذكر بجسده الذى ينضح بالعرق، يهجم عدة مرات كالأمواج العاتية، وتتقبّل الأنثى ذلك، العنف يصطدم بالسماء ذاتها مصدرًا صوت كالصرير، صوت الحركة يخترق السحاب كذلك ليصل إلى الجبال والسهول، لم يكن سماعى ذلك بواسطة الأذن، بل كان الصوت صادرًا من أعماق الجسد، من أعمق حوافه المظلمة، ثم تستمر دقات القلب ضربةً ضربةً فى شكل تموجات متأنّية مشئومة، ومهما ارتفعت نبضاتها لا تتغير للأبد.

مرة ثالثة يصدر صوت يشبه صوت الصاعقة.

المطرقة المصنوعة من اللحم تدخل بعمق وعنف كأن كل جنس يحاول بالتبادل تحطيم الجنس الآخر، بالضبط كأنه لابد من أجل الترابط الجسدى بين الاثنين من تخطى اللحم ذاته، يبدو أنه لابد من التوجه نحو اللحم واختراقه لمنتهاه.

زادت حدة الارتباك بين الأهالى، بل إنه أُغمى بالفعل على بعضهم، وهناك من يرسم علامة الصليب على صدره مرة بعد مرة، وهناك من كرر الطلب بوقف تنفيذ الحكم، تقيأ يوستاس كمية كبيرة من اللعاب وهو يهتز بعنف، وتقطّعت ملابس النساء الثلاث الواقفات بجواره فقبضن على أثدائهن التى تعرت وهن يهززن رؤوسهن بعنف مسببات الشعوث لشعورهن من الاهتزاز، الشمس تكاد تختفى حقا فى ظل القمر، زاد اشتعال النيران المرتفعة المتوهجة فى الظلام، بقوة لتبدأ أخيراً فى حرق وإفناء المحكوم عليها.

لمحت أنا الذى تعبت من الوقوف ظلا يجرى مقتحمًا جموع الناس ليدخل الدائرة، ولما نظرت وجدته جان، للمرة الأولى منذ وصولى إلى القرية يترك جان الأرجوحة ويقف أمامى فوق الأرض، تأملت هذا المشهد بدهشة وفى نفس الوقت بنوع من السعادة، ذلك لأن وجه الصبى فى تلك اللحظة، ظهر عليه بشكل مؤكد ما يشبه الإرادة الذاتية، إنها إرادة فعل شيء ما، إرادة من يحاول تحقيق هدف معين، انتهى اللعب عديم الجدوى، وتتجه الحركة إلى مكان واحد؛ أى أن السهم كان على وشك الانطلاق أخيرا، ...، لقد أمعنت النظر بسعادة لا حدَّ لها، لكن هذه السعادة لم يكن سببها العاطفة على الإطلاق، إذا

شئنا القول، لقد شعرت فى تلك الصورة نوعا من النجاة.

- لكن فى اللحظة التالية لهذا الشعور، انطلقت من الفتحة المظلمة المثقوبة فى وجه جان المُجدِب ضحكات هائلة مجنونة كأن بها مس تكاد تمزق اللحم.

تلألأت الخنثى، وكأنها الشمس التى تتجه إلى الغياب، فى جمال سبّب دوارا للجميع، يشع ضوء ينساب فى نفس الوقت إلى الداخل، الآن حان الوقت لهذا الجسد المُشبع بالتناقضات، لكى يُبرز بوضوح صفاته الذاتية المتنافرة؛ ليحاول وهو يتأكد منها توحيدها معا دون فقدان أى ذرة منها، الجسد متوتر ولكنه مع الاندهاش الكبير منتعش، زادت اهتزازت العضو الذكرى المنتصب بشدة وعنف أكثر، إنه يرفرف بجناحيه كأنه يرغب حقًا فى الطيران، وهو يتلوى من الألم مثل الطيور الجارحة التى تمنعها قيودها بالأرض من الطيران.

أخيرًا التصقت الشمس بالقمر، فى ذات اللحظة قذف العضو الذكرى بالسائل المنوى، القطرات التى انطلقت فى السماء دون النظر إلى الفرج، تلألأت باللون الأحمر بفعل النيران، وظهر بسببها قوس قزح يتلألأ فى المسافة بيننا وبين الخنثى، استمر السائل المنوى يتدفق، لم يهدر الجسد ذلك، القطرات المتعكرة المتناثرة سالت ساقطة من العضو الذكرى، وانقسمت يمينًا ويسارا، ثم تخطت الخصيتين وتلاقت مع الفرج ثم دخلت إلى أعماقه.

راقبت الجسد فى قمة النيران، راقبت هذا الشىء الذى أحن إليه، تخطيت الحرارة التى تفرّقنا وراقبته من جميع الجهات،

شممت الرائحة المنتشرة، وسمعت صوت الاحتراق، داعبته فى جنون، كنت أحاول العودة إليه، عندها بدأت الحرارة تهاجمنى، وكنت وأنا أنظر، يُنظر إليّ، ثم انطلقت منى رائحة التفحم وأحسست بالجلد يحترق مصدرًا صوتا، اللحم تشقق، ترابطنا بالفعل معا، لقد أُعدمتُ حرقا، لقد تأوهت من الألم، وسكرتُ من اللذة، كنت راهب وفى ذات الوقت زنديق، ذكر وفى ذات الوقت أنثى، كنت أنا الخنثى، وكانت الخنثى أنا، لقد غرقتُ فى أشواك اللهب الأحمر، أصبحتُ عمودًا من نار اخترق السماء، أنار الضوء الكون الواسع، وتخطى المادة ليجعل الجوهر ظاهرًا جليا، ويعطى المادة وجودًا أكيدا، يا لروعة وجمال الكون، ويا لتألقه المنعش فى تلك اللحظة! الحركات الضرورية تحدث جميعها فى تلك اللحظة، حركات الماضى تتكرر فى تلك اللحظة إلى ما لا نهاية، كل شيء تم توقعه للأبد، يحدث، ثم يستعرض مرة أخرى، كلما حاولت الروح ترك الجسد كلما تعمقت أكثر داخله، ارتفعت روحى مع جسدى إلى السماء، ثم نزل جسدى مع روحى إلى قاع الأرض، انصهر الجسد تمامًا فى الروح، تأملت الكون كله فى مكان واحد واستطعت لمسه، كان الكون حميمًا بالنسبة لى، لقد احتضنت الكون، والكون احتضنى، اتصل الكونان الداخلى والخارجى، أصبحا بحرا واحدا، لقد فُقد الكون لأوجد أنا، وفُقدت أنا ليُوجَد الكون، لقد فُقدنا معا، وُوجدنا معا، وجود وحيد! كنت على وشك الوصول حقا، إلى ماذا؟ إلى النور، إلى هذا النور العملاق المبهر، إلى النور الذى يفيض ويصدر من مكان بعيد، إلى مكان ما يصله وفيه منبعه، النور، بمعنى، ...... لا أدرى كم مر من الوقت.

عندما انتبهت، لم يكن هناك أثر للخنثى فوق عمود الحرق، وكذلك اختفى العملاق، الشمس أصبحت فى قرصها الكامل كعادتها تتلألأ فى أفق السماء.

أهالى القرية جميعهم واقفون فى حالة ذهول وغيبوبة، وما زال البعض منهم فى حالة ضياع نفسى، حتى جاك ومن معه واقفون فاتحون أفواههم مشدوهون، فقط ينظرون إلى ما تبقى من عمود الحرق.

يوستاس هو الوحيد الذى كان جاثيًا على الأرض ويتقيأ بعنف.

اختفى جان، مهما أدرت النظر لم أجد له أثرا، فجأة شككت فى أن جان لم يكن فى الأصل موجودا هنا؛ وذلك لأن صورته الخافتة الباقية فى ذاكرتى المرتبكة بدت لى كخيال وهمي..، هل تقولون: إن هذا الصبى نزل إلى الأرض وجاء إلى هنا؛ ليشاهد حكم الإعدام؟ هل تقولون إنه أخرج صوتًا من فمه الأبكم..، لكنى أقلعت عن التفكير أكثر من ذلك.

أهالى القرية الذين عاد إليهم الوعى أخيرا، ظلوا فى حيرة، ونظروا وراءهم تجاه جاك طالبين منه النجاة.

وبذلك عاد جاك إلى وعيه، وأصدر أوامره.

- «ابحثوا تحت عمود الحرق، ... ربما وقعت على الأرض بعد أن فُكت السلاسل، ... لا يجب إبقاء ولو قطعة واحدة من جسد الساحرة، لا، بل ولا حتى مجرد شعرة واحدة منها، ... هيا!»

اقترب المنفذون الذين استحثهم جاك من أكوام الحطب الذى مازال به بعض النار.

- «... لا يوجد شيء، لا يوجد إلا الرماد فقط.»

ثم تراجعوا، بعد ذلك حاول جاك البحث بنفسه، وعندها اقترب من بين جموع الناس رجل بخطوات مترنحة متجهًا نحو العمود، نظر الأهالى إليه بعيون مشدوهة، جث الرجل بركبتيه على الأرض، وشق الرماد بيده العارية وبحث إلى أن وصل إلى شيء ما، ما ظهر أمام أعيننا كانت قطعة من الذهب المحمر، تشع ضوءًا غريبًا عن عالمنا مرة أخرى، انزعج الأهالى قلقا، كانت القطعة.تلمع فى كمال رائع وكأنها مصقولة، ورغم استخرجها توا من وسط الرماد، فإنه لم يكن بها ولو ذرة واحدة من تراب أو رماد، بعد أن قبض الرجل يده عليها، حاول وضعها فى فتحة صدره، لكن فى ذات اللحظة أوقفه جاك بنبرة صوت عنيفة قائلاً:

- «اقبضوا على هذا الرجل! فقد قُدّمت شكوى بالفعل ضده من

أحد الأهالى فى القرية، ..، وكلكم الآن قد شاهدتم ما يحاول فعله، هذا الرجل ينوى أخذ رماد الساحرة؛ ليستخدمه فى ذلك السحر الشرير الذى يحاول صناعة الذهب، إنه يحاول إرباك النظام الكونى الذى خلقه الله لنا، ويعمل على إلحاق الكوارث بالقرية، ...، هيا، ماذا تفعلون؟ اربطوه سريعا بالحبال.»

أوثقت يدا الرجل بعنف وقِيد إلى حيث يقف جاك، لم يبد أى مقاومة، يُرى فقط على الوجه أثر ضئيل للإرهاق.

مرة أخرى تصايح أهالى القرية قليلا، أطاح جاك بغطاء رأس الرجل وتأكد من وجهه، ثم بعد أن صادر منه المادة العجيبة المختبئة فى يده اليمنى، قبض عليها داخل كفه؛ ليهرسها بصعوبة قائلاً:

- «إنه مجرد رماد، ..، رماد، ...»

تسلل من بين أصابعه ما يشبه تبر ذهبى يحتفظ ببقايا من بريق، استدعى جاك المنفذين وأمرهم بإلقائها مع الرماد فى نهر القرية، عندها وقف فجأة يوستاس الذى كان متكورا على نفسه ليُبدى رغبته فى التخلص من الرماد بنفسه، لكن جاك لم يوافقه على ذلك، ثم مرة أخرى أكّد على منفذى حكم الإعدام أن يتخلصوا هم من الرماد، ثم نظر متفحصًا جموع الناس، وبعدها اصطحب الرجل وغادر المكان فى صمت ....

وقع ذلك كله فى لمح البصر، كنت أقف صامتًا بين جموع الأهالى، فقط أراقب ذلك، وأنا أنتظر لعل الرجل يلتفت ناظرا ناحيتى.

..، لكن كان ذلك بلا جدوى.

فى النهاية رحل الرجل، أعنى الخيميائى بيير ديوفاى ، من أمامى، دون أى يعيرنى ولو نظرة واحدة.

لم يسقط المطر فى وقت الغروب ذلك اليوم.

غادرت القرية فى اليوم التالي.

كان ذلك إذا شئنا القول، استجابة لنصيحة جاك، فبعد القبض على بيير، قابلنى جاك سرًا وقال لى: «أريد منك أن ترحل ولو فى الغد عن هذه القرية، بعد أن تم القبض على بيير ديوفاى بتهمة السحر، من المتوقع أن ينالك ضرر ما بسبب علاقتك الوطيدة به، أنا لا أشك فى إيمانك ولكن ربما يتّهمك أحد أفراد القرية، وأنا لا أتمنى أن تتعرض للمحاكمة، إذا كان هدفك الأصلى من الرحلة هو الذهاب إلى فلورانسا، فلا توجد فائدة من البقاء هنا أكثر من ذلك، أرجو أن تستجيب لما أقول لك.» ولقد قبلت أنا ذلك.

لم أحاول وأنا على وشك العودة مرة أخرى للترحال، العمل بأى شكل من الأشكال لرفع التهمة الظالمة عن بيير، مثل الشهادة أمام المحكمة وإزالة الشبهات عنه، أو محاولة التدخل سرًا لدى جاك للعمل على تخفيف العقوبة، فقط تذكرت وصية بيير لى فحملت من منزله ما يختزن من كتب، وغادرت القرية كالهارب المتمرس على الهرب.

..، لقد قلت رفع التهمة الظالمة عن بيير، لكن هل كنت حقا أستطيع فعل ذلك؟

لم أستطع أثناء إقامتى فى القرية، وحتى النهاية الوصول إلى نتيجة ما إذا كان بيير زنديقًا يحترف السحر أم لا؟ لو فرضنا أن شخصا قال إن بيير هو الذى تسبّب فى نشر الأوبئة وسقوط الأمطار باستخدامه المباشر للسحر، لربما كان لدى المقدرة على دحض ذلك؛ لأن مثل هذه الأفعال تفوق ما يستطيع المخلوق فعله أصلا، ولكن إذا كان القول أن المحاولة فى الخيمياء ذاتها هرطقة، وإن الرب غضب لهذا التحقير الذى لحق بذاته، فأنزل هذه الكوراث المتعددة كعقاب، فأنا تجاه ذلك لا أجد غير الصمت، أنا حتى هذه اللحظة لا أستطيع القطع بعدم صحة ذلك.

ورغم ذلك، فسأكون كاذبا لو قلت إننى عند مغادرتى القرية حملت داخلى معاناة أو حيرة ولو بقدر قليل، وذلك لأننى أصبحت أعتقد بذلك بعد مرور فترة زمنية طويلة.

لقد كنت أريد مغادرة القرية بأى شكل، بدون سبب واضح كنت فقط أريد ترك القرية بسرعة، كلمات جاك كانت لا تزيد عن كونها فقط حجة مناسبة لذلك.

إذا كان الأمر كذلك، فما هو السبب، وجدتنى مضطرًا إلى توجيه السؤال لنفسى، هل هو بسبب الجبن؟ أم هل بسبب عدم ثقتى فى محاكم التفتيش؟ هل هو بسبب لهفتى إلى فلورانسا؟ أم بسبب شعورى المتناقض تجاه بيير؟ أم هل هو بسبب ذلك الإرهاق الهائل الذى احتوانى حينها؟ ... لم أستطع تحديد أى من ذلك هو السبب، لكن على الأرجح كل هذه الأسباب مجتمعة تحتوى على شيء من الحقيقة، كلما تقدم بى العمر، كلما فقدت القدرة على

الإيمان، فيما يتعلق بأفعال البشر، بالنظرية التفاؤلية البسيطة التى تقول إن كل نتيجة فى النهاية تعود بالضرورة إلى مسبّب واحد فقط، إن سبب نتيجة واحدة ما هو إلا معقّد بشكل غريب أكثر بكثير مما نعتقد نحن، وفى أغلب الأحوال، يكون السبب الذى نكتشفه نحن كسبب وحيد، لا يزيد عن كونه جزءًا صغيرًا اقتُطِع من محيطه العضوى، بالطبع يوجد هناك فارق فى حجم تأثير كل منها.

واصلت السفر مرة أخرى، إلى أن بلغت فلورانسا سالما، وفيها استطعت الحصول على عدة كتب هامة مثل أجزاء من ترجمة فيتشينو لأعمال أفلاطون الكاملة التى لم تكن نشرت بعد، ومقالته الدراسية عن فيثاغورث، بالإضافة إلى «مختارات هرمس»، و«نبوءات الكلدانيين»، بالإضافة إلى أنى استطعت مقابلة أعضاء من أكاديمية أفلاطون بداية من فيتشينو نفسه.

واستمعت باهتمام عميق إلى آرائهم حول فلسفة أفلاطون وغيره من الفلاسفة الوثنيين، واستطعت أيضًا التعرف عن قرب على النظرية المدهشة لـ "بيكو ديللا ميراندولا" التى وصلت إلى باريس منذ عدة سنوات من الآن، لكن فى النهاية لم يصل أى من ذلك إلى حد الانبهار الذى شعرت به تجاه بيير.

لم أكن بمفردى فى طريق العودة، فقد استعملت أجيرين بما تبقى لدى من مال، وجعلتهما يحملان الكتب التى زادت كميتها، ولأننى قضيت الشتاء فى فلورانسا، فقد رجعت إلى باريس فى ربيع العام التالى.

ولحسن الحظ كانت وظيفتى الجامعية ما زالت باقية كما هى.

بعـد عـدة شـهـور من عـودتى إلى باريس، فى الثـلاثين من أغسطس عام ١٤٨٣ توفى ملك فرنسا وقتها لويس الحادى عشر، كان فى الستين من عمره، ثم فى العام التالى، وفى الثانى عشر من أغسطس عام ١٤٨٤ توفى بابا روما وقتها سيكستوس الرابع، كان فى السبعين من عمره، رغم عدم اهتمامى بالحوادث العامة إلا إننى أتذكر موت هذين الرجلين بوضوح، والسبب هو أننى وقتها اعتقدت أن تلك إشارة على نهاية حقبة هامة من حياتى، حتى الآن لا يزال يحتوينى إغراء يصعب مقاومته، بمحاولة الربط بين ظروفى الشخصية وبين تتابع موت هذين الشخصين الذى هو ربما لا يزيد عن كونه مصادفة، أنا أساسًا لا أحبذ الاستغراق فى مثل هذه المشاعر، لكن الحقيقة أنه بعد تلك الرحلة حدث لى تغيير حقيقى، لا أستطيع التعبير عنه بشكل جيد، إذا حاولت التعبير عنه، فقد استطعت التعرف قليلا عن قرب على شيء ما مكنون فى الأعماق السرية للإيمان؛ وبسبب ذلك تولدت داخلى لأول مرة طريق طويلة تصلنى بالله.

... أنا حاليًا أعمل فى وظيفة كاهن رئيسى لأبراشية صغيرة فى أحد الأقاليم.

بعد أن انتهيت من فترة البحث العلمى فى باريس عام ١٥٠٩، دعانى خيمنيز دى سيسنروس للتدريس فى جامعة القلعة بإسبانيا، قمت على مدار عشرة أعوام تقريبا بإلقاء محاضرات عن الفكر التوماسى، وبجانب ذلك اشتركت فى أعمال تحقيق وترتيب أصول الكتاب المقدس ....، عند إعادة النظر إلى تلك الفترة، أجد أننى حصلت على شيئين فقط فى تلك الأرض، وهما قليل من السعادة وكثير من اليأس، لا، بل يجب وصف الأخير بالقليل أيضا، السعادة هى قدرتى على كتابة عدد كبير من الكتب العلمية هناك، وهذا لأننى كأستاذ زائر حظيت بمعاملة جيدة مما أتاح لى الكثير من الوقت الحر، أما اليأس فهو إدراكى مدى السخافة فى محاولة إعادة التعاسة التى نتجت أصلا بفعل الزمن إلى البيئة المحاطة بنا لإيجاد أمل ما، وفى النهاية لم يكن فى حياتى بمدينة القلعة أى اختلاف من أى نوع عن تلك التى كانت فى باريس، ثم منذ سنوات، بدأت سياسة التنصير فى تلك الأرض تثير حنقى، وبالضبط فى نفس الوقت توفى خيمنيز، فانتهزت الفرصة، وحملت ما كتبته من كتب وهى تصل إلى عدة مؤلفات، وعدت إلى وطنى، وأخيرًا حصلت على منصبى الحالى ككاهن،

أثناء توجهى إلى روما فى أحد الأيام الماضية لقضاء بعض الأشغال، أقمنا أنا ومرافقى فى نُزل فى فيبان وقضينا هناك عدة أيام.

انتقد كل من قابلت فى فيبان الأوضاع السيئة مؤخرًا لمحاكم التفتيش، وأبدوا جميعا حزنهم لذلك أثناء سماعى لأحاديثهم،

تعجبت لما تعرّفت فى أسماء من ذكروا من القضاة على اسم مألوف لى، أعنى جاك ميكائيليس، ذهبت لزيارته فى دير المدينة؛ وذلك لأن رغبتى فى معرفة مصير بيير ديوفاى بعد ذلك، تغلّبت حتى على شعور الرغبة فى لقائه للتحية بعد فترة طويلة.

تغيرت ملامح جاك جدا لدرجة أننى كدت لا أستطيع التعرف عليه، وذلك لا يُستغرب على الإطلاق؛ لأننى لم أقابله منذ رحيلى عن القرية منذ أكثر من ثلاثين عام مضت، لكن على ما رأيته فإن الشحوب الذى ظهر على ذلك الوجه ليس مرجعه إلى الشيخوخة فقط، فقد ذهب عن العينين بريقهما السابق، وهناك ظل كئيبًا حولهما، تمامًا مثل حد السيف الذى قدم من كثرة الاستعمال فأصبح مُزيتًا مغيما، وكأن الموت زاره عدة مرات وصبغه بآثاره.

لم يستطع جاك التعرف عليّ، بل وعلاوة على ذلك قال إنه لا يتذكر القرية ولا الساحرة التى أحُرقت فيها، وحتى بيير ديوفاى قال: إنه لا يتذكره، أعتقد أن ذلك كله كذب؛ لأن جاك عندما سمع اسم بيير ديوفاى تغيرت ملامحه فجأة ولم يستطع التحدّث لفترة.

ارتباكه كان لا شك فيه، كررت عليه نفس السؤال مرة أخرى، كانت الإجابة هى نفسها لم تتغير، لم يكن هناك بد من الرحيل وترك الدير.

لكن لقاءات هذا اليوم لم تنته عند ذلك.

بعدها وعندما كنت أتجول فى المدينة، تنبهت إلى من ينادى عليّ من الخلف، وعندما التفت إلى الوراء، وجدت فى أحد جوانب الطريق رجلا أعرج يقترب وهو يلهث، إنه غيوم الحدّاد، لقد ارتبك فى مصادفة اللقاء به مرة أخرى بهذه الطريقة ولكن وضح الأمر فى الحال.

أعرب غيوم عن سعادته الكبيرة بمقابلتى مرة أخرى، بطريقة حديثه المتملقة التى لم تتغير، وهو يكرر مرة بعد مرة عبارة "لقد أصبحتَ عظيمًا"، بعد أن هززت رأسى مرتين أو ثلاث موافقا، غيرت مجرى الحديث، وسألته أليس الموجود فى الدير هو جاك ميكائيليس، الرجل الذى كان يأتى القرية فى الماضى قسيسًا للوعظ، أجاب غيوم بما يلي:

- «نعم، أنه هو، هل قابلته بالفعل؟»

خادعته وقلت "لا، ليس بعد"، ثم سألته هل يعرف شيئًا بخصوص بيير، أجاب غيوم على ذلك بأريحية فى الكلام.

- «سيد نيقولا، ألا زلت تتذكر أمر ذلك الخيميائى المزيّف؟ لقد مات منذ زمن داخل السجن، يبدو أن ذلك كان أثناء التحقيق الذى كان يجريه معه السيد جاك، كما تعلم يا سيد نيقولا فبسببه ذاقت القرية الأمرّين ....، فى الحقيقة الآن أستطيع الإفصاح، إن من أبلغ عنه بتهمة السحر، هو أنا؛ لأننى أكثر من يعرف الجرائم العديدة التى ارتكبها بفضل ذلك، أكرمنى السيد جاك، وبعدها تركت تلك القرية الكئيبة وأعيش الآن فى هذه المدينة وأدير محلا للحدادة، حقًا كل ذلك بفضل السيد جاك ....»

لم أرد عليه إلاّ بكلمة «حقًا؟» فقط، بعد ذلك ألح غيوم فى دعوتى إلى الذهاب إلى منزله وتناول الطعام معه، لكنى رفضت بعد أن ذكرت له أنه يجب عليّ الذهاب لبعض شأنى وهو ما لم يكن صحيحا، وتركت الرجل فى الحال وهو كمن أُخِذ على حين غرة.

بعد أن مشيت قليلا، تذكرت فجأة أمر جان، وعندما التفت إلى الخلف لأسأله عن ذلك، كان غيوم قد اختفى فى زحام المارة...

الأمطار التى استمرت فى الهطول ثلاثة أيام متواصلة أخيرًا توقفت هذا الصباح وتألقت الشمس التى لم نرها لفترة فى سماء الشرق فى هدوء كالوردة المتفتحة، دخل النور من النافذة وأضاء ما فوق مكتبى، ليجعل الزئبق الذى فى حجم قطعة نقود معدنية المتوقف فى قاع الإبريق المائل، يتلألأ بشدة.

لقد بدأت مؤخرًا إجراء تجارب فى علم الخيمياء ، كنت قد فككت الأحبال من على كتب بيير التى أهملتها طويلا وقرأت تفاصيلها بتمعن، وأقوم الآن بتكرار تجارب الصنعة يوميًا متبعًا تلك التفاصيل، كنت حتى الآن لم أتعرض بصفة خاصة إلى علم الخيمياء، من بين العلوم الطبيعية، لكن ربما يكون سبب توجهى فجأة لخوض تجارب الخيمياء هو تأكدى من موت بيير، بعد مقابلتى لجاك وغيوم منذ عدة أيام، لا أستطيع القول بشىء مؤكد؛ لأننى لم أنجح بعد فى الوصول إلى مرحلة السواد، لكننى لدى شعور ما بالقدرة على الوصول إلى نتيجة ما.

كان بيير فى الماضى يكرر ويعيد القول إن التجربة هى كل شيء فى علم الخيمياء، حتى لو فرضنا أن المرء قرأ آلاف الكتب فبدون التعامل الفعلى مع المادة فلن يحصل على شيء، كان هذا اعتقاد بيير نفسه، وفى نفس الوقت كان نصحا لى، أخيرًا بدأت أفهم الآن معنى هذه الكلمات.

فقد تعلمت فى الحقيقة من خلال إجراء التجارب الكثير من الأشياء التى لم أتعلمها من الكتب، على الرغم من أنه لم يمر على ذلك شهر واحد، ولكن فى النهاية هذا لا يزيد عن كونه شيء ضئيل جدًا من الأشياء التى تنتج عن التجارب، ما اعتقدت أنه الشىء الأهم هو وجود نوع من الرضا العجيب فى إجراء تجارب الخيمياء بحد ذاتها، أنا عندما ألمس قبضة صغيرة من المواد أشعر وكأننى ألمس كل مواد المخلوقات جميعا، أحس بأننى ألمس الكون ذاته، إنه شعور يصعب التعبير عنه، ربما هو شعور يشبه شعور شخص ما يقف بمفرده فى مراعى واسعة، أو يشاهد البحر القابع أمام عينيه ممتدًا بلا نهاية، لكن وقتها الذى يستطيع هذا الشخص لمسه فى النهاية لا يزيد عن جزء بسيط من الكون، لا، بل ربما لا يستطيع مجرد لمس هذا الجزء، لكننى عندما أنعزل داخل حجرة صغيرة معتمة وأمارس تجارب الصنعة، فى كل لحظة، مع نوع معين من التأكيد الغريب أستطيع الإحساس باتصالى المباشر بالكون كله.

أليس هذا الإحساس هو سبب انجذاب من سبقونا من البشر إلى تجارب الخيمياء؟ وعندما أعاود التفكير فى العلاقة الحميمة التى لاحظتها أنا بين بيير وتنّور الخيمياء، فعلى الأقل أنا أرى أنها تعبّر عن ذلك.

حدث فى حياتى كلها مرة واحدة فقط خبرت فيها إحساسًا أعنف بكثير ولكنه مماثلا تقريبًا لذلك، إنه يوم إعدام الساحرة حرقا.

لا يزال حتى الآن تألق تلك اللحظة ينعكس داخلى، ينعكس فى تألق لا يمكن التعبير عنه، لكنى فى وقت ما بدأت أشاهد ظلا صغيرًا للغاية داخل هذا الضياء المشع العملاق الذى يبتلع المخلوقات بأكملها، تمامًا كما ينمو الصدأ على سطح المعدن، ثم يبدأ الضياء فى الحركة نحو تلك النقطة، ثم ينطلق منها إلى الآفاق، ثم يتدفق إلى الأبد مثل نبع عجيب معكوس، علاوة على أنه لا يعرف الجفاف إلى الأبد.

فى بعض الأحيان أرى فى هذه البقعة الواحدة صورة منعكسة للكون المشع، إنه مبنى من اللحم والمادة بالفعل، أنه عالم موجود فى الواقع وحميم لنا.

أليس السبب الذى جعلنا لا نعتبر فى النهاية هذا الضياء هو الضياء الذى هدى بولس هو أن صوت الرب لم يصلنا؟ الحقيقة أنه بالمقارنة بالدلائل الكثيرة التى تنكر ذلك، لا يوجد ولو دليل واحد يثبت أن ذلك الضياء هو بفعل الرب.

لكننا نحن المسيحيين نحيا دوما داخل نبوءة معينة، وبسبب ذلك، من وقت لآخر عندما نتذكر الكلمات التالية، لا نستطيع التوقف عن محاولة النظر إليها كعلامة على معجزة معينة فى حياتنا اليومية.

بالفعل هو لا يصل إلينا بسرعة ....

هل لم ير أحد فى منظر الخنثى ذلك اليوم وهى تُعدم حرقا، هيئة السيد المسيح وهو يُعذب ويُقتل على الصليب؟ ألم يوجد أحد رأى بعد أن رمى الحجر، أمام عينيه "جبل الجمجمة" وانتابه على الفور شعور بالندم؟ ألم يوجد أحد رأى عمود الحرق المقتطع من الغابة المشئومة، يتحول ولو للحظة إلى صليب يتلألأ؟ ألم يوجد شخص رأى النيران التى ابتلعت الخنثى تصل إلى عمق الأرض، وتحاول غسل خطيئة آدم؟ ...، مثل هذه الأفكار هى عديمة الجدوى بالتأكيد، وربما تكون شيئًا لا يجب غفرانه، لكن ما حثنى على كتابتها هو أننى جاء عليّ وقت شككت فيه بالفعل أن الخنثى هى ظهور ثان للمسيح...، هذه الشكوك ألقيت بها للأسف داخل جُبنى، بعدها لن يبقى إلاّ صورة لكائن حى غامض.

يا ترى ماذا تكون تلك الخنثى بالضبط؟ كان لدى أمل دفين أننى من خلال كتابة تجربتى الذاتية كما حدثت تماما، ربما أحصل على شيء ما يكون إجابة عن هذا السؤال، لكنى حتى النهاية لم أستطع رسم شكل متكامل للخنثى، هل لو كنت وضعت ذلك فى ذهنى وسعيت إليه بشدة وأنا أكتب، هل كنت حصلت على النتيجة الملائمة؟ أنا لا أعتقد بذلك، تلك الجهود ستكون عديمة الفائدة؛ لأننى أعتقد أننى فى النهاية، عند الكتابة عن الخنثى، لم يكن أمامى غير كتابة انطباعاتى، التى كانت تتناقض مع بعضها البعض بين الحين والآخر، كما هى بتناقضاتها.

ثم عبثًا أحاول التفكير هكذا: حقا لقد أحسست بتوحدى المؤكد مع الخنثى فى لحظة ذوبانها فى الحرق، لكن عند إعادة التفكير، ربما لم يكن ذلك مقتصرًا على ذلك الوقت فقط، عندما

رأيتها للمرة الأولى داخل الكهف وعندما جيء بها سحبًا إلى ساحة الإعدام، ثم حتى عندما كانت تتأوه والعضو الذكرى قد تعرى منتصبًا يشير إلى السماء غير قادر على الطيران، ربما أيضًا كنت أنا وهى متحدين....

ربما كانت الخنثى هى أنا شخصيا.

عندما وصلت إلى نهاية هذا الكتاب، نظرت مرة أخرى إلى أحد الكتب المتراكمة فوق المكتب الغارق فى أشعة الشمس، محتوى الكتاب يتكلم عن تقارير بشأن حركات الهرطقة التى بدأها عضو فى جماعة أوغسطينوس وتنتشر بشدة فى شمال البلاد.

تنهدت ثم نظرت خارج النافذة، الأرض بعد توقف الأمطار، تعكس قرص الشمس المشع مما يجعل العين تصاب بزغللة.

كانت الطيور تصيح.

وعندما نظرت فجأة بعيدا إلى الأفق، رأيت قوس قزح جميلا ومتألقًا فى السماء.

المؤلف فى سطور

كيئتشيرو هيرانو

ولد عام ١٩٧٥ فى محافظة أيتشى بإقليم وسط اليابان.

تخرج من كلية الحقوق جامعة كيوتو القومية، حازت أولى رواياته المنشورة وهى هذه الرواية «الكسوف» على جائزة «أكوتاغاوا» المرموقة، ليكون أصغر من حصل عليها وقتها، ورابع أديب يحصل عليها أثناء دراسته الجامعية بعد شنتارو إيشيهارا (محافظ طوكيو الحالى)، وكينزابرو أويه (الحائز على جائزة نوبل للآداب) وريو موراكامى، وواصل إصداره للأعمال الأدبية فكتب عددا من الروايات ومجموعات للقصص القصيرة.

بالإضافة إلى جائزة أكوتاجاوا، حصل هيرانو على عدد من الجوائز اليابانية والدولية منها جائزة كيوتو للثقافة عام ٢٠٠٠، وعلى جائزة وزير التربية والتعليم اليابانى فى عام ٢٠٠٨، وعلى جائزة دوماجو (Deux Magots) فى عام ٢٠٠٩، وعلى جائزة محافظة فوكو أوكا الثقافية فى مجال الإبداع لعام ٢٠١١ ... إلخ.

ترجمت أعماله فى أمريكا وفرنسا وكوريا الجنوبية وتايوان وروسيا والسويد وغيرها، وهذه هى أول رواية له تترجم إلى اللغة العربية.

اختير منذ عام ٢٠٠٨ عضوا فى لجنة تحكيم جائزة «يوكيو ميشيما» للأدب، وكذلك جائزة «هيجاشيكاوا» الدولية للتصوير.

المترجم فى سطور:

ميسرة عبد الراضي عفيفي

- وُلد في القاهرة عام ١٩٧١.
- تخرج فى جامعة القاهرة عام ١٩٩٣.
- سافر إلى اليابان للدراسة عام ١٩٩٦ واستقر بها حتى اليوم.
- يعمل حاليًا مترجمًا حرًا للغة اليابانية. له خبرة بالعمل مع أغلب قنوات التلفزة اليابانية، وعمل في القسم العربي لهيئة الإذاعة والتلفزيون اليابانية (NHK)، وكذلك عمل مترجما فوريا لما تبثه قناتها الفضائية من أخبار عن المنطقة العربية.
- له عدة مقالات منشورة عن الثقافة اليابانية والأدب الياباني، وترجم أعمالا لأشهر أدباء اليابان، مثل يوكيو ميشيما وأوسامو دازاي، ولعلماء مثل د. ناوكي كومورو.

التصحيح اللغوى : عبير محمد
الإشـــــراف الفنى: حسن كامل

تقع أحداث الرواية فى فرنسا إبان نهاية القرن الخامس عشر.

يخرج نيقولا الراهب الكاثوليكى من باريس فى رحلة للبحث عن كتب الفلاسفة القدماء، وللبحث عن استقرار نفسى وتناسق مع أفكاره وعقيدته؛ ليلتقى فى قرية نائية بخيميائى عجوز يحاول الوصول إلى حجر الحكماء المسمى "الأكسير"، الذى يحول كل المعادن إلى ذهب.

بلقاء ذلك الخيميائى تنقلب أفكار الراهب الشاب رأساً على عقب، ويتسلل الشك إلى نفسه.

ومن خلال تتبعه خلسة لذلك الخيميائى يقابل فى كهف مريب كائناً عجيباً مقيداً بالأحجار، لا يعرف هل هو بشر أم حجر، أنثى أم ذكر؟

إنها الرواية الأولى للأديب الشاب كيئتشيرو هيرانو التى أحدثت ضجة كبرى فى اليابان عند نشرها، لتعلن عن ميلاد أديب عملاق وصف فى اليابان بأنه ظهور جديد ليوكيو ميشيما أسطورة الأدب اليابانى الحديث.

تصميم الغلاف: نادية كشك